محمد عزالدين التازي

مغارات

رواية

الكتاب: مغارات

الكاتب: مُحَمَّد عز الدين التازي

الطبعة: ٢٠٢٢



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التازي، مُحَمَّد عز الدين

مغارات / مُحَمَّد عز الدين التازي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٧ ص، ١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٥٧٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٧٣٨ / ٢٠٢٢

مغارات



وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

"... قلتَ لي دعني يا ابن ضربان فأنا لا أقوى على أن أتلقى رؤياك أو أن أسمع كلامك، وأقول لك أنت في حِلٍّ من أن تسمع كلامي فلكل حال محال وأنت إن أردت فخُذِ الإبرة حتى تصير خياطا أو خُذِ المطرقة حتى تطرق بها الحديد ساعة يحمر في النار لتُسَوِّيَ منه مفتاحا أو قفلا أو هما معا أو خذ المجداف حتى تجدف في بحر وستجد أنه هو بحر الكتابة وأن الحديد ساعة يُفَلُّ ويَلينُ هو الوصول إلى المعنى وأن الإبرة بها تخيط ما تَفَتَّق من أحلام ووقائع، وحتى وإن أردت ألا تدركك حرفة الكتابة، فأنت الخياط وأنت الحداد وأنت صَائِدُ أسماكِ المعاني في بحار هذا العالم، وها أنا أدعك وأنت لا تدع نفسك، أحُلُّ عنك وأنت لا تحُلُّ عني، كان الله لي ولك وللوراق ولقارئ هذه الأوراق."

ابن ضربان الشرياقي

مطالع

المطلع الأول

(لم أكن أفكر في طنجة. فكرت في أي مكان يكون فيه موتي، أو أحيا فيه على طريقتي الخاصة قبل أن تصير لي طقوس للموت والدفنلم أَخْتَرْهَا، فمتى جاءت طنجة إلى حياتي عبر تلك الصدفة التي لا أذكر تفاصيلها تماما؟ لم أكن أريد أن أموت قبل أن أحيا قليلا أو كثيرا بين الناس والأشياء والعادات المغايرة، لكن الشيء الأهم من كل هذا هو أنني أردت أن أرتبط باسم هرقل، فهو سحابة سماوية تحولت إلى كل شيء، وحَلَّتْ في طنجة وسط أضواء الكون الباهرة، حتى رأيت خطوته على الصخر ودليل السياح يرشدني إلى مكانها. ترددت قليلا ثم ضحكت ولم يعد باستطاعتي أن أختار مكانا آخر لموتي سوى طنجة.)

ل.ز. روزلمان

المطلع الثاني

(...المدينة تَوَزَّعَتْ بعد أن ذَرَتْهَا الرياح، غاب موتاها وقتلاها ولم يعد بها سوى اللصوص وتجار الميناء و"مطعم روميرو" وحفنة من الذكريات. لا شيء من طنجة القديمة سوى حوانيت الهنود ورؤوس الخراف الناضجة على البخار في السوق البَرَّانِيّ. حين بحثت عن التمسماني لم أجد عنده ذلك الحنين القديم إلى المغامرة، فقد شاخت روحه وأصبح يردد نفس الكلام بين كل وقت وحين، لكنه عرض عليَّ شريط الفيديو الذي يصور حياته وحياة طنجة. تركته وذهبت

إلى فندق الجنينة. سمعت زقزقة العصافير وصفير القطارات وزعيق البواخر، وكلها أشياء كانت. ثَمِلْتُ بعد شرب الكثير من الخمر في العديد من الحاناتثم تَسَاءَلْتُ عما هو كائن، فعرفت أن ما هو كائن هو أنا وهذه المدينة، رغم موتها وتحولها إلى قِبْلَةٍ للرياح السبع. رأيت أن أزور ضريح بوعراقية وأبكي قبور من لا أعرفهم، وبعدها أغادر الضريح إلى حيث تقودني الخطى، ربما إلى خمارة، أو إلى ردهة عمارة قديمة فأدخل في حوار صعب مع حارسة العمارة الإسبانية حتى أُقْنِعَهَا بأن تتركني أنام على العتبة، إذا ما أغراني النوم هناك، فليست تلك سوى مغامرة أبدد بها السأم، فأنا أتوفر على مال كثير يمكنني من الإقامة في أحسن فندق في طنجة. صور شريط الفيديو الباهتة لم تذهلني، وها أنا أسترجعها وتَخْرِيفُ التمسماني هو تَخْرِيفُ طنجة.)

من مذكرات ل. كاروج

المطلع الثالث

(الرعد.

الرعد الرعد.

الملائكة لا يأتون إلى هنا. قالوا لي لا بد أن تسمع الرعود وترى الملائكة في طنجة، ربما في الشوارع أو في المقابر أو في الأحلام. عليك أن تتسكع، وإياك ألا تخبرنا بالهاتف ساعة تسمع الرعود وترى الملائكة.

الرعد والملائكة.

كيف؟ هل هو طقس، احتفال، فضاء بدائي، يُوتُوبْيَا. لا شيء؟

لا بد أن أَحْلِقَ كل شعيرات هذه اللحية وأن أنظر إلى المرآة سبع مرات في

اليوم حتى أعيش أسبوعا كاملا في اليوم الواحد، وأن أتعلم اللغة العربية حتى أتكلم بها لغة الرعود والملائكة، وأن أرسم وَشْماً بربريا على ساعدي الأيمن حتى أُظْهِرَهُ لهم ليقبلوا بَيْعِي ذلك العشب الأخضر ببعض أوراق الدولار.أريد أن أرى طنجة بحرا يسكن في البر كما أخبروني، وأن أَسْكُبَهَا في شراييني مع نَفَسٍ من ذلك العشب الأخضر، حتى أَمْلِكَهَا، ولستُ مُوَدِّعاً قبل أن أرى البحر يغمرني ويغمر هذه المدينة.)

ورقة لصعلوك تركها في إحدى الحانات

المطلع الرابع

(... ليكن دمها أو أي شيء. انتصاب عود البان أو تذكيرٌ بالهجرة من البر إلى البحر عبر البوغاز حتي احتضنتنا طنجة كما احتضنت آخرين فاس وتطوان. لكني بقيت مشدودا إلى شاطبة بدمي، ولكل دمٍ دمٌ آخر يَحِنُّ إليه. حملت دمي وأشجاري وبَرِّي إلى البحر كما حملت التطريز والياقوتة الخضراء ومفاتيح بيتي، والسجادة ودموع الصبيان وسُبْحَةَ العقيق، وصليل السيوف وألف حكاية وحكاية، وأغاني الربيع وأشعار الشعراء، وهنا بَنَيْتُ الدار وقلت هذا هو البيت الأندلسي: الرخام واخضرار النبات والفسيفساء وماء الورد والقصيدة. وها أنا في طنجة كأني في شاطبة، لولا أن شاطبة هي الحلم والذكرى، ولهذا بكيت وشربت خمري ثم عبرت إلى وادي آش وتذكرت قصيد حمدونة ورأيت عيني المعتمد بن عباد وهما تَتَوَلَّهَانِ في عيني وزيره وتبكيان فبكيت.

دار أندلسية والاسم تَحَوَّلَ قليلا والتجارة زَهَتْ في وقت وجيز وباسم الله نبدأ. وهذا هو بوغاز طنجة وقد أخذت تقطعه سفن أخرى غير تلك السفن، وها هي ريح الشمال تحملني كلما وقفت على ساحل طنجة نحو بيتي الذي

حملت مفاتيحه في جيبي، فأُخرج المفاتيحَ من جيبي وأُقَرِّبُهَا من عيني حتى أراها أكثر، وتَهُبُّ زوبعة الحكايات فأرى دموع الصبيان وأعود إلى خمري وبكائي).

أبو الربيع الشاطبي

المطلع الخامس

إنها طنجة.

لا تولد من سلالة الكلمات.

ولعلها زَبَدٌ أو حفنةُ رملٍ تتدفق من بين الأصابع.

كأنها استعادة الفَقْد وهي تجيء من حالاتها القصوى.

كي تحط فوق جبين ذلك السيد الذي اسمه (ع).

أَرْنَبَةُ أنفه مَنْحُوتَةٌ من صخر

الطربوش أحمر

والعينان سَمَكِيَّتَان

الذاكرة خَرَّبَهَا الذهولُ ودخولُ البر إلى البحر

وهو يقول: تعالوا إلى طنجة العالية

وحينما يضحك، يخرج شيطان مُتَسَلِّلٌ مع الضحكة

ثم يصعد أو يهبط، مُكَلِّمًا موتاه حتى يبوح ببعض أسرار المدينة

أنا عبد النبي يقول

كل الأشياء تعرفني

الطعنة ضاعت في فراغٍ يوم ضاعت طنجة

وها أنا أستعيد كل شيء ضائع من المغارات

ها رمادُ الملكة إليزابيث

صلعة الشاعر خوليو

وتَأَرُّقُ مُحَمَّد شكري

واصفرار سحنة بول بولز

وقفطان حب مومن السميحي المُنَقَّطُ بالهوى

أنا من نَقَّطَهُ بالهوى

أنا عَرَّابُ طنجة

لغتي مُبَطَّنَة

تسكن حواراتِ الموتى، والأعلامَ الأجنبيةَ التي عَلَتِ القنصليات، والبحر، وشارع النخيل، والجبل الكبير ومقبرة القطط، وصولات رجال الميناء

وأنا من سمع ضحكات طنجة

من رآها تُشْنَقُ في مقهى الحافة

ومن رأى أدولفو يخرج من تلك البناية الإسبانية العتيقة.

أنا من رَتَّبَ منحوتات ذلك النحات المجهول في الممر

وأنا من سكن روح ساميا

وأغرق الصاحب في الوهم

وأعطاك قمر ذلك الزمان أيها القارئ، وأنت تقف على شاطئ طنجة،

ودَلَّكَ على الطريق وأنت تتيه في دهاليز هذه الأوراق، أنا الشقروف، وَالِدُ الوَالِد، جَدُّ الأجداد، وأنا قارئٌ مثلك أيها القارئ، وبكل تواضع أنا السي عبد النبي كما يسمونني في القصبة، أتذكر المَرَاهِمَ وأعشابَ البحر والدموع والأمواج، كما أتذكر طنجة التي في الكارت بوسطال، وبنات اكَزناية اللواتي جئن إلى الرواية راقصات ليشربن خمر ذلك الشقروف، وأتذكر قمة القارة.

أنا عبد النبي

صرت مُقْعَداً أُنَزِّهُ بصري في سور الكسالى

تَخَلَّيْتُ عن إرشاد السياح

ولن أرشدكم في هذه المغارات

اعذروني

صِرْتُ مُقْعَداً وما أنا بقارئ ولا بكاتب، سوى أن شابا غريرا أراد أن يقتحم مغامرة الكتابة عن طنجة، وحين أَضَلَّتْهُ مغاراتُ الكتابة ومغارات هرقل أراد أن يأكل الثوم بفمي، وأنا لا أعرف ما سيقوله لكم ذلك الشاب عني، ولكن لا تصدقوا ما سيقول، صدقوا كلام البحر وحوارات الموتى، وها أنا في سور الكسالى، من رآني منكم فَلْيُحْنِ رأسه ويمض، فلا حاجة إلى الكلام بعد الكلام.

لك اخضرار القلب والعين
ولي أن أسافر في المسافات

رأيتُ خيله النافرة وشموعه وقناديله وسمعت الضحكات. وحينما تكلم لم يقل لي. كان في مكان آخر وها أنا أسمع الصوت وصداه.

التماثيل الطينية أُحِسُّهَا ناهضة في الممر وجرس الباب لا يرن.

واقف في المطبخ وحولي بعض أواني الفخار. فوق الرَّفِّ عُشْبٌ يابس تمتد سيقانه من المزهرية وترتخي في الفراغ. النباتات الخضراء فوق الثلاجة يُشِعُّ اخضرارها إلى جانب صحن يكاد يكون مليئا بالتفاح والعنب والجوز في قشوره. على الرف فناجين وصحون وعلب للتوابل، وشموع بعضها محروق وبعضها لم تَمَسَّ ذُؤَابَتَه النار.

أينك أيها الصاحب؟

جئت إلى المطبخ أحمل في عيني صورتك وصورة الموقد. كلاكما النار والرماد. نَارُكَ رائعةٌ ومُشْتَهَاةٌ حينما تَلْتَهِب وتَنْشُرُ حدائقها في المكان. نار الفرح ونار الرقص ونار الغناء. نار الحكايات والذاكرة المُهْتَاجَة. نار البحر الذي هجرته بعد أن أحرقت السفن. نار الشَّيْبِ الذي اشتعل في الرأس. نيران أخرى نسيتها الآن. والموقد ليست به نار، من فوهته العميقة الغَوْرِ تَتَدَلَّى نباتاتٌ طرية يَسْمَقُ اخضرارها في هشاشة وبهاء. لمساتك الجمالية رتبت كل شيء هكذا، وكأنك أنت، في مكانك الشهي المُعَدِّ للْفتنة واستقبال مزيد من الجراح حتى آخر شهقة وآخر نَفَس. السرير واسع واللحاف أبيض مزركش الحواشي. الوسائد، واللوحة التي على الجدار، فوق الرأس، يَتَخَرَّمُ جِيرُهَا عبر قشور رقيقة تَحُدُّ مكان الخط، وازْرِقَاقُهَا النّيلِيُّ يَشُقُّ بعصاه بحرا وَهْمِيّاً يُشَكِّلُهُ

الامتداد. ذاك هو السرير كأنه القبر المشتهى، مكان للسكينة والحلم وتكسير حواجز الصمت الذي يرتفع كل يوم بين الحاضر والماضي، فقد انْهَدَّتْ ذاكرتك أيها الصاحب ولم يعد لك ما تقوله لنفسك سوى استعادة كل الأماكن التي تجعلها أبدا تحضر في طنجة وأنت تتحدث عن الأرق الطنجاوي الذي لا يشبهه أرق آخر، ولا شيء أيها الصاحب سوى هذا السرير والكتب والموسيقى والتماثيل والأغراس، وأنت.

زمن المسرات

ربيعها لم يأت.

ربما لن تأتي ثانية إلى هذا المكان الذي هَجَرْتَهُ هَجْرَكَ الجميل. من أين لي أن أعرفها وأنت لم تقل لي إنها سوف تأتي؟ كنت تُلَمِّحُ إلى حضورها الغامض في ربيع الأيام القادمة وكأنك تُهْدِينِي البشارة. حتى اسمها ذكرته لي. ساميا قلت. قلت الاسم وأنت تضحك، وملامحها تشكلت لدي من الظلال التي أخذت تَنْهَالُ على كلماتك وأنت تُزِيحُ الضوء عن الصفة والموصوف حتى صارت ساميا ظلا لشيء ما، ربما لك، أو أنها قد احتلت مكان ظل آخر لأشياء لا أعرفها.

هل ستأتي ساميا إلى هنا؟

هل سنتناظر أنا وهي فأرى العينين المتوحشتين والزبيبة التي على جانب الذقن؟

هذه الأوصاف لك. أنا لم أرها من قبل، وأنت لم تكن تقصد وصفها لي أو لأشياء الغرفة، أو حتى لنفسك، حتى تتأكد من أنها هي، فقد كنت تَنْسَاقُ مع الهذيان وتنسى وجودي هنا، معك في قَعْدَةِ الصحاب، حتى ظننتك تَخْلُقُهَا من وَهْمٍ أو خيال، أو تأتي بها من غياهب الذاكرة السحيقة، أو تَلِدُهَا من ضِلْعِكَ ربما.

قد تكون معها الآن.

ربما أنت الآن تجالسها في مقهى أو تسير معها على الشاطئ، تَرْمِقَانِ النوارسَ وقوافلُ الكلابِ الضالة تقترب. هل تلامسها؟ هل تنظر إلى عينيها المتوحشتين؟ أعرف أنك ستنظر جهة أسوار القصبة، والميناء، وفندق

كونتيننتال، وربما تقول شيئا عن طنجة، تحكي عن اغتيالٍ أو سرقةٍ أو اغتصابٍ حتى تُكَسِّرَ الصمت. هل يمكن أن تَتَلَهَّى ساميا بهذه الأشياء؟ لعلك ستفسح المجال أمام تحليلاتها للأوضاع، التي يمكن أن تنهض كتعليل لحالات الجنون والقتل والسرقة والاغتصاب، لتطرح سؤالها الحاد:

. هل طنجة في حاجة إلى قبضة البوليس الحديدية أم أنها تحتاج إلى تشكيل ملامح مجتمع جديد؟

كيف ستجيب أيها الصاحب؟ أعرف أنك تكره البوليس وترى أن معظمهم يَتَوَرَّطُونَ في الجرائم أكثر من حمايتهم للناس. لكنك ربما، سَتُلِحُّ على ليل طنجة الذي لا تعرفه ساميا، فهي لا تعيش ليل المدينة في الشوارع والحانات، ولا تلاحظ المؤامرات والتهريب ونشاط العصابات، لأنها كامرأة لا تقوى على التسلل إلى تلك العوالم الدموية، الذي تشبه الكوابيس، كوابيس مدينة اسمها طنجة.

وقتها، وأنتما تدخلان متاهة هذه المدينة التي تَلَغُ في الدم والجنون، سوف تغدو الحكاية العابرة جِسْراً لحديث جاد تتعرف من خلاله على بعض أفكار ساميا، وموقع تلك الأفكار، مع أنك لن تتسرع في تصنيفها مع انتماء معين، لأنك تعرف أن التظاهر ببعض الأفكار كثيرا ما يكون خادعا، ولا يعني سوى مصيدة من المصائد.

قل أيها الصاحب، هل عرفت ساميا ليل طنجة؟ ماذا قالت لك؟ عيون الناس في المدينة صارت شاردة النظرات، أو أن النظرات الجارحة هي كل شيء. نظراتُ الدَّعَةِ والابتسام المحترف ظلت وحدها للمُخَنَّثِين الذين يمارسون أنوثتهم في تراقص أضواء الخمارات أو على أبواب المراحيض، فكل مُخَنَّثِي العالم يأتون إلى هنا، كما يأتي المرابون وتجار الخليج، والمدينة مفتوحة على كل رياح العالم.

ثم قل لي أيها الصاحب، لماذا لا تكون عيناها مُتَوَحِّشَتَيْ النظرات؟

وصفُك الجميل هذا الذي التقطته من كلامك الخاص عن ساميا جعلني أتخيل امرأة جادة لها أفكار ومبادئ، تَصَلَّبَ عُودُهَا بعد أن عاشت وعانت، وتعلمت كيف تأخذ بالمبادرة في الحديث كي تصارع بعض الأفكار بأفكار أخرى جاءت بها من الكتب بعدما اختبرتها في الحياة، وهي إذا ما تعامل معها أحد كامرأة، فإنها تَتَوَتَّرُ وتظهر على ملامحها تشنجات العصاب، فتضيق عيناها وتُلَوِّحُ بيديها في الهواء بحركات رعناء، وتقلب مسألة الدفاع عن حقوق المرأة إلى البنية الكلية المجتمعية. تقول أنا لا أعاني أية مشاكل كامرأة، ومشاكلي هي مشاكل كل مواطن. ينبغي أن تخرج المرأة من تفكيرها الضيق حول ذاتها إلى ما يربطها بالنسيج المجتمعي، والمهم هو أن تتغير العلاقة القائمة بين المواطن والسلطة.

تتوزع أفكارها وتجد نفسها وهي تصارع على عدة واجهات، لكنها تستعيد ابتسامتها الغامضة، وتُشِيعُ بضحكتها قليلا من الفرح في جلسة الصحاب. وأنت الصاحب، قل أهذه هي ساميا؟ أهي كل النساء أم أنها امرأتك التي لن تكون امرأة لأي رجل؟ قل، فأنت لم تقل لي، وكل ما تصورته حول ساميا هو مجرد افتراضات، أو ملامح مبعثرة لامرأة لم تأت، ولم أرها بعد، لكنها حاضرة معي هنا ومعك هناك حيث أنت، دون أن أعرف أين تكون الآن.

هل أنتما الآن في (مطعم روميرو) تأكلان السلاطة واللِّنْكْوَاصُو وتَتَلَهَّيَانِ بأحاديث الزبائن وحركات النادل الحائرة بين الموائد؟ قل لي. اللانْكُوسْطُ مع النبيذ الأبيض والمحار يكونان أشهى لكما. هل أنا من يختار الوجبة والمكان؟ طاوعني أيها الصاحب. تعاليا إذن من مطعم روميرو، فليس ثمة سوى الازدحام واللغط وقلق النادلين، وكلها أشياء تفقد الجلسة متعتها. ستذهبان إلى مكان

آخر. سوف أصنع لكما زمنا للمسرة في مكان لن تنسياه أبدا. المكان هو ما يعطي المسرة أيها الصاحب، فأنا أعرف أن إِقْبَالَكَ على الطعام قليل، وسقامك الدائم هو نفس السقام، لكنك تبتهج برؤية الطعام، تأكل بعينيك كما يقولون. تعاليا. هنا. اجلس قبالتها. هكذا. لا تنظر إلى صورتك في المرآة، فأنت لست نرجسيا إلى هذا الحد حتى تنظر إلى صورتك في المرآة وأمامك امرأة ليست ككل النساء. إنها ساميا. دع عينيك تجولان في المكان قبل أن تَحُطَّا على عينين قاسيتين لامرأة لا تعطي ضحكتها لأحد، والزبيبة السوداء تَنْتَأُ على جانب ذقنها الأيسر وهي تُفْرِجُ شفتيها لترشف من حافة الكأس.

أُهْدِيكَ هذه المسرة حتى أغير طريقك. قلت ستذهب إلى الجبل حتى تشعل حرائق ذاكرتك وتنتقم، تقتحم المجهول وتفجر الأسئلة التي ظلت مؤجلة، وربما سوف تتعرى أو تغني أو تصرخ أو تتوجع، وفي يدك الفأس التي بها تنوي أن تحفر قبرك، فما عاد ثمة شيء يستحق أن يُعَاشَ كما قلت لي، أو ربما سوف يكون في يدك المجداف الذي تدفع به حياتك الخاصة نحو شاطئ من الشواطئ، حتى يتقدم بك الزمن الذي تعطل، وأنا أنتظر أن ترسو على بَرٍّ، وأنت وحتى وإن هجرت بحر طنجة فقد تِهْتَ في تَيْهِكَ كسندباد من زماننا، وأَضَلَّتْكَ ظلمات تلك المجاهل التي سِرْتَ فيها، وها أنا أُهْدِيكَ زمنا للمسرة حتى أغير طريقك.

قلت لي سوف تخرج من جسدك حتى تراه أمامك، نحيلا بارز العظام، عليه ندوب وآثار جروح قديمة، ثم ترفعه نحو الشمس حتى يَتَطَهَّرَ. لكني خفت عليك من أن تسقط في شَرَكِ تلك الأسئلة القديمة فتحرقك المحارق، وتعود مُحَطَّمَ الأعصاب، أكثر شَرَهاً للخمر والتدخين، وأنا أردت أن أغير طريقك وأهديك زمنا للمسرة.

ها جسدك ما يزال واقفا بِسُمْرَتِهِ المُمَلَّحَةِ وأنت ترتدي الكاسادورة الزرقاء وسروال البلودجين. الذراعان نافران كرُمْحَيْنِ من رماح محاربين قدامى، لم يَأْلَفْهُمَا الجسد.

النظرات الذاهلة، وصَمْتُكَ في المقهى وكَلامُكَ القليل مع الصحاب. الخلوة وثِقَتُكَ التي فَقَدْتَهَا في التنظيمات والأحزاب. حساسيتك تجاه اللغة والأحداث، وانفعالاتك الباطنية التي تنعكس على عينيك خلال النظرة المتوترة، الكسيرة أحيانا، اللامعة بشعاع يخترق صفاقة الأشياء ويتسلل إلى روح مُحَدِّثِكَ إن كان هو الصاحب، أنا، كما تدعوني وأدعوك، فتتعطل اللحظة ويتحول المكان إلى شتات. النظرات الرَّاسْبُوتينِيَّةُ التي تَغْمَضُ من خلالها الأشياء من فرط وضوحها أمامك، وكلما سألتك:

ـ ماذا تفعل؟

تقول لي:

ـ ها أنا أَلُمُّ شَتَاتِي.

هل انتهت النزهة الشاطئية؟ من سيدفع ثمن الغذاء على إحدى موائد ذلك المطعم الموعود، أنت أم هي؟ أنا تَخَيَّلْتُ جلسة سعيدة وأردتُ أن أختار لها المكان. أعرف أنكما إذا ما تم اللقاء سوف تأخذان البُوكَادِيُّو من محل اللُّبِّ القريب من (حانة النِّيكْرِيسْكُو) حيث تَحْتَسِي كأسك في بعض الأوقات، في زاوية بعيدة عن الضوء والثرثرة.

لن تُمْسِكَ بيدها. لن تخبئ راحتها بين راحتيك، ولن تضع يدك على كتفها في الشارع. تسير معها مشغولا بالحديث الذي أنساك اقتناص دفء ذلك التَّلامُس، كما أنساك أن تغازلها أو أن تنظر بِوَلَهٍ إلى العينين المتوحشتين، وها

أنت تنتقم لصمتك الذي طال ولحاجتك إلى سماع الناس.

تريد أن تقدح الزناد بكأس لتشعل طرف لسانك حتى يضيء، وتستيقظ حواسك الخاملة قبل أن تقول لها وتقول لك. منذ أيام لم تقل صباح الخير لأحد. حين جئت إليك هذا الصباح فتحت الباب وعانقتني. نظرت إليَّ بفرح طفولي. غامت عيناك. دخلت وجلسنا. انتبهت إلى موسيقى الناي الهندي وهي تكاد لا تُسمع. أتيتَ أنت من المطبخ بقهوتين في فنجانين مختلفين، أحدهما أزرق كبير مَثْلومُ الحافة، قلتَ تعودت أن تشرب منه، والثاني أبيض موشسبتواشٍ ذَهَّبية، قدمته لي. قلت لي لم تقل صباح الخير لأحد منذ أيام، والعالم الخارجي صار مسافة تقصر في كل لحظة حتى تَوَحَّدَتْ بهذه المنحوتات الطينية الناهضة في فضاء الغرفة. قبل أن أفرغ من شرب قهوتي نظرت أنت إلى الساعة وطلبت مني أن أبقى هنا، حتى تعود من سفرك إلى الجبل.

أينك الآن أيها الصاحب؟ غَرَّبَتْكَ طنجة. تَغَرَّبَتِ المدينة وغَرَّبَتْكَ معها، وها هي تسري في الدم، تسكن الأحشاء والخلايا، ولكي تنتقم لتاريخها فهي تخرج من المغارات، تشرب الضوء من الفتحة المُطِلَّة على شمس البحر وقمره وجسدها يملأ فراغ دهليز تَنْسُجُهُ قطرات الماء التي تَنِزُّ من باطن الحجارة. تخرج من مغاراتها إلى السوق الداخل لتتشاجر مع تجار العملة أو تشتري قارورة من الويسكي المُهَرَّب. تصعد إلى (السوق البراني) وتنظر جهة الصومعة، ممتدة ببصرها إلى حدائق (فيلا دو فرانس)، و(رياض القنصلية الإنجليزية). حينما تتجه نحو (البوليبار)، ترى وجهها على مرايا الواجهات وتَتَقَيَّأُ قَيْئاً أبيض ثم تظهر في الشوارع وقد صَبَّتْ على رأسها برميلا من النفط أو علبة من زيت المحركات، فاصطبغ على الشعر والخدين والعنق، وزرقة خديها تلمع تحت أشعة الشمس وهي تطوف من شارع باستور إلى شارع فاس إلى شارع الحرية.

كلهم يهربون منها وينبذونها، رواد السوق الداخل الذين عاشوا أيام طنجة الدولية، الجبليات النازحات من الضواحي، باعة الورد، القتلة، السياح الأجانب، كلهم يهربون منها، فلا أحد يستطيع أن يقترب من امرأة زرقاء، تفوح منها رائحة النفط. لكنها تعرفهم جميعا، حتى الذين باعوا واشتروا في أسواق طنجة الدولية، وأَلَّقُوا ليالي المدينة بِوَشْيِ ورقة حواء التي كانت تمسك بها الراقصات الإيطاليات والسويديات والهولنديات، حتى الذين باعوا المدينة وحينما استرجعوها كانت قد تَشَوَّهَتْ وصارت على هذه الحال، فَمَثَّلُوا بها، حتى الذين وقفوا حائرين بين طنجة التي راحت، وطنجة التي جاءت، تعرفهم جميعا وتتحداهم بضحكتها الزرقاء، مقتربة من أي واحد منهم، لحظة يشعل القداحة أو عود الثقاب، والسيجارة في فمه، لحظتها تقترب، ويبتعد الرجل مذعورا وقد أَخْمَدَ ناره، وضحكتها الزرقاء تطارده إلى حين أن تصطاد رجلا آخر يَهُمُّ بإشعال سيجارته فيتكرر ما كان قد وقع لها مع الرجل السابق.

قل لها أن تُسَلِّيكَ وتُنْسِيك، أقصد ساميا، أما طنجة فهي السلوى وهي الذكرى والمآل، ولعلك أيها الصاحب لم تَصْحُ منها بعد.نارنا واحدة، والرماد هو الرماد.

الهيجان

أنت أيها الصاحب تعرف عمي ميمون.حتى وإن كنت من أصحاب الكاسادورات فَسَتُشْفِقُ عليه ولن تَتَشَفَّى وأنت تراه على هذه الحال، فالرجل ينهار.

في هذا الصباح أزاح العمامة البيضاء عن رأسه ووضعها على المِشْجَبِ. مَسَّدَ لحيته بأطراف أصابعه وسوَّى الطاقية على رأسه ثم خرج بخطاه المتعجلة من داره ليسير من درب لدرب. في يديه رائحة زيت الزيتون والسمن البقري وعسل النحل. رجل لا يُدَلِّسُ. إذا قال عسل النحل فقد جناه بيديه وعصره من الشهد. يأتي المفطرون كل صباح ويتزاحمون على الحرشة وخبز المقلاة والرغيف والمسمن وأنواع العصير واللبن. ميمون ينظر إليهم نظرات خزر ويقدم الطلبات دون أن يرد السلام على أحد. الكاسادورات. عمال الميناء وتجار العملة والمهربون والقتلة. كفرة هؤلاء. عندما ينادونه عمي ميمون فهو لا يعتبر ذلك توددا منهم، فحقده عليهم يشتعل بين وقت وآخر. يراهم يتكئون على الجدار أو البسطة أو يقفون على جانب الرصيف. يفتحون أفواههم الشرهة ويتكلمون والأفواه مليئة باللقم. يستعجلونه دائما، وقد أَلِفَ كل شيء وتعوّد ألا يُكَلِّمَ واحدا منهم، فلا حاجة إلى الكلام، يقول أنا مؤمن فكيف يكلم المؤمن الكافر؟ روائح الخمور ولحم الخنزير تفوح من الأفواه. تأتي البنات المعكرات الخدود والشفاه فيأكلن الرغيف المحشو بالجبن ويشربن الموندادا. لا آباء لهن. لو كان لهن آباء لقتلوهن وأجرهم على الله. اليوم تركت العمامة البيضاء وخرجت إلى نهاري الأسود بهذه الطاقية. هذا يوم القتل. لا راحة إلا في دار الفقيه الرحموني. كم سيمضي من الوقت حتى نصل إلى ميقات العصر؟ هؤلاء الكفرة كلهم سيأكلون ويمضون إلى فجورهم. أنا أطعم الكفرة من خيرات الله. أقبض مالهم الحرام في

بيع حلال. ماهم الحرام يدخل جيبي بعد أن يدفعوه ثمنا لما يأكلون. أنظر إلى ورقة المائة درهم فأسمعها تقول لي أنا مسروقة، أو أنا كسبني هذا الرجل من التهريب أو بيع الحشيش أو الخمر التي حرم الله، أو أنا ثمن لقاء سفاح بين هذه الفاجرة ورجل ذهب إلى حال سبيله بعد أن أفرغ فيها ماءه القذر. لا حول ولا قوة إلا بالله. لن أطعمهم بعد اليوم. سأذهب إلى الفقيه وأَسْتَفْتِيهِ في الأمر. سأنتظر ميقات العصر وأذهب.

قالوا هذا الرجل ينهار. ميمون ماله؟ بناته الصغيرات منعهن من الذهاب إلى المدارس. زوجته لا تصعد إلى سطح الدار كي تنشر الغسيل مخافة أن تراها عين رجل فتحرم عليه كما يقول، لذلك تنشر الغسيل على أبواب الغرف، أو تنتظر حتى يعود ميمون من الدكان ليصعد إلى السطح فينشر الغسيل. عند وسطه حزمة المفاتيح يُسمع لها صليل عند كل خطوة، وفي يديه رائحة السمن البقري. النور يشع من عينيه. قالوا هذا هو نور الإيمان. وقالوا ما له ميمون؟ إذا كان مؤمنا فليس وحده من آمن بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر. ألم يكن عليه أن يصلي ويصوم ويعصم نفسه عن الزنا وأن يترك للناس أمور دنياهم، فهو ليس نبيا ولا مصلحا ولا وليا من الأولياء؟

قالوا عاد إلى الدار ووجد ابنته الحسنية تُنضج الخبز فوق الصفيحة. كانت قد سمعت صليل المفاتيح ولم تجد الوقت الكافي لكي تتحرك وتنادي أمها. نظر إليها ونظرت إليه. أحنت رأسها وقَلَّبَتِ الخبزة. لا أحد من المؤمنين يذهب بخبزه لأفران الكفار. لن أُنْضِجَ خبزي مع خبز الكفار. عندما يقبض عزرائيل روحي فلن أدفن بجوار كافر. لن أزوج ابنتي لكافر. الطبيب كافر. ضابط الحالة المدنية كافر. الزبال كافر. الخراز كافر. النجار كافر. وها نحن نحيا مع الكفرة.

قال للحسنية:

ـ أين أمك؟

لم تجب.

قال لها:

ـ خرجت؟

ظلت الحسنية صامتة وهي تُقَلِّبُ الخبز علي الصفيحة. صعد الأدراج المؤدية إلى السطح. رأى زوجته تحمل في يدها حزمة من النعناع وهي تَفْصِلُ الوريقات الخضراء وترمي بها من السور إلى ناصية الطريق. نظر إلى الأسوار والسطوح المجاورة. أطل على الطريق فرأى عددا من الوريقات الخضراء مبعثرة على الأرض. أشار إليها بالهبوط وهو يَهُمُّ بنزول الأدراج فتبعته.

حين خرج إلى الطريق سار تحت السقائف يخطو بجسده القوي. انتبه إلى أنه يكلم نفسه، وكان صوته الداخلي قد أصبح مسموعا في الطريق. كم قلت لها؟ كم قلت لها وهي لا تسمع؟ آخر مرة رأيت فيها الفقيه الرحموني وجدته يقرأ كتاب الله. دخلت السطوان ونزعت البلغة احتراما لبيت الفقيه وعلمه وتقواه ثم جهرت بالسلام عليكم قبل أن أرفع الخامية. لم أرفعها إلا بعد أن سمعت وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. رأيت الوجه مُتَهَلِّلاً وقد غمره النور الرباني وكتاب الله فوق الركبتين. كان بجوار الفقيه كِتاب حربي قديم أطلعني عليه وذكر لي عنوانه:

تَسْهِيلُ المنافع في ضرب المدافع

ثم حدثني عن أهمية محاربة الأعداء وقال لي لا طاعة للحكام حتى يحكموا بما أمر الله، ونحن لن ننتصر على الأعداء إلا بعلم الحروب وفنونها، واختلط في كلام الفقيه أعداء الأمس وأعداء اليوم، وكأني قد فهمت من كلامه أنه يفكر في جيش

يضرب بالمدافع، فاسترسل يشرح لي أهمية النبال المسقية بالسم، وضرورة التدريب على الرماية لمدة كافية قبل أن نعلن الحرب، ثم حدق في عيني وكأنه يُودِعُنِيَ سرا من أسرار الله. بادلته النظرة حتى يفهم أنني قد فهمت، ولم أتجرأ على الحديث عن البارود والنار الحارقة، فقد ظل الفقيه يجول بنظره في أرجاء الغرفة الواسعة، حتى أشار إلى السقف فتوقف عن الكلام وأخذ يشير لي ببعض الإشارات التي فهمت بعضها ولم أفهم بعضها الآخر دون أن أتجرأ على السؤال.

شربت شاي الفقيه ثم نهضت مُسَلِّماً. وحين رد السلام تراجعت نحو الوراء حتى لا أعطيه ظهري ورفعت الستارة ماضيا نحو السطوان، فانتعلت بلغتي وخرجت وأنا أفكر في النبال المسقية بالسم.

كم قلت لها ولم تسمع؟ والنبال المسقية بالسم أنستني أن أسأل الفقيه عن حكم الله في المرأة التي لا تسمع كلام زوجها. وأنا بناتي شيطانات. كلهن شيطانات. المرأة كلها من الشيطان وطَمْثُهَا كل شهر هو الدليل على ذلك. حبستهن عن الذهاب إلى المدارس. نصحت المرأة بألا تكنس الدار في يوم الثلاثاء حتى لا يدخلها الشيطان. نهوتهن عن أكل الزيتون الأسود في أيام معدودات ذكرتها لهن، حتى لا تكون كل أيامهن سوداء. الصلاة تركنها. لم أر واحدة من بناتي تصلي حتى بعد أن جلدتهن بحزامي الجلدي لأُجْبِرَهُنَّ على الصلاة. يقلن يصلين وهن لا يصلين، وإلا فكيف أسمع في كل مرة أدخل فيها الدار صوت عبد الصادق شقارة يغني:

أنا امْرَاوْكْ

بَاغِي نْشوفَك

قل لي فَايْنْ؟

ولماذا لا تُزلزل طنجة، لماذا لا تُحرق أو تغرق، لماذا؟

شيطانات. أنا تذكرت الحلم، حلمته البارحة ونسيت. أنا أبكي. هل الرجل يبكي؟ رأيتهن. أنا رأيت كل شيء ولم أعرف كيف أخرج من المسجد. دخلت المسجد ولم أعرف كيف أخرج منه. إذا أردتم أن تنادوني فنادوني عبد الله. سموني عبد الله، وإذا قلت لكم اسمي ميمون فقولوا اسمك عبد الله، فأنا لست ميمونا، وها قد نزعت العمامة عن رأسي ووضعت هذه الطاقية حتى أخرج إلى يومي الأسود.

كان الماء يتدفق من النافورة وفي الخلف هيبة ووقار. هذا المسجد أرتاح إليه أكثر من غيره. كلها بيوت الله ولكني أجد الراحة في هذا المسجد. كل ألياف الحصير سجدت عليها بجبهتي، وها هو دينار الصلاة للواحد القهار. الأعمدة والمحراب والسقوف التي تعشش فيها طيور أبابيل التي رمت الكفار بالحجارة. حين اقتربت رأيتهن، الأجساد عارية والنهود البيضاء عارية وزَغَبُ الوسط ظاهر. أغمضت عيني بيدي حتى لا أرى ما حرم الله ولكن شيطانهن أغراني فأخذت أنظر إليهن من بين أصابعي وقد أخفيت وجهي بيدي. الشعور على الأكتاف. العيون كَحِيلَةٌ والخدود مُوَرَّدَة. بعضهن مرتديات قفاطين تكشف فتحاتها عن السيقان وبعضهن عاريات، ولم أعرف عددهن، فقد أخذت اللاَّبِسَاتُ يَطُفْنَ حول العاريات، ويرقصن على موسيقى لم أكن أسمعها.

أنا رأيت طيور أبابيل وهي تُخرج رؤوسها من بين السقوف ثم أخذت تصرخ بأصوات حادة جريحة. حاولتُ أن أصرخ فلم أجد صوتي، وحاولت أن أضربهن وأخرجهن من بيت الله فلم أجد لي يدا أو رِجلا، حتى جاءت إحداهن بكأس وأغوتني فشربت، وها أنا أبكي الآن بعدما عادت إليَّ عيناي، فقد كنت بلا عينين، وها هي النبال المسقية بالسم قد أنستني أن أسأل الفقيه الرحموني عن حكم الله فيما رأيت، كما نسيت أن أسأله عن حكم الله في عصيان الزوجة

لزوجها. والآن عرفت أن الحرام لا يدخل المسجد، فلقد كنت أرى الحوريات. حلمت بالحوريات وحينما رأيتهن أغمضت عيني تَعَفُّفاً وحياء. يا ويحي! أهي خمر الجنة تلك التي شربت؟

ها هم يصعدون ويهبطون. الكاسادورات. الطَّرَاخِي والكَابَّا. الفالدات القصيرة. والسيقان العارية. الكحل والعكر والبِيبَّا تُطَقْطَقُ بين الأسنان. زلزال أو طوفان. حَرْقٌ أو غَرَق. إما أن تُحرق طنجة وإلا فلسوف تنتشر العاهات الطنجاوية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، كما ينتشر الجرب أو الطاعون أو حتى الثآليل على راحة اليد. طنجة ثُؤْلُولٌ لا يمحوه إلا الحرق. طنجة هي الجرب أو الطاعون.ولا بدمنالنبال المسقية بالسم.

الكحلة تأكل الخليع في الكوزينة

الغرفة كانت، ثم ها هي. أنا الآن قَاعِدٌ على الأريكة أنظر من الشرفة إلى تشابك السطوح. الجبل الكبير هناك وراء العمارات الإسبانية العتيقة والشرفات كلها مزينة بالأغراس.

صارت الغرفة في عيني وأنت أيها الصاحب تدخل الموقد في تلك اللحظة وتُخرج منه شعلة نار صفراء أو حمراء باردة تضيء وتستضيء، وربما بعد حين سوف تنطفئ.

أخرجت الشعلة من حطب كان ثم صار رمادا ثم أخرجت الرماد من الرماد وجئت بالنبات الطافح الاخضرار ليحتل موقع النار والحطب. أنا ضحكت وأنت قلت هذا رماد غيري، فقد سكن هذه الغرفة قبلي أناس كثيرون. كان لكل رماده والرماد يضاف إلى الرماد. لا رماد لي قلت ولا نار، وهذه أغراسي، فلعل منظر الموقد يكون هكذا أجمل.

من منا لا رماد له أيها الصاحب؟

أكنت تسخر مني أم أنك على عادتك تخترق بناء أرخبيلات اللغة المتوحشة التي تستعيدنا منها كثافة دخان السجائر والمنفضة التي امتلأت بالأعقاب. ما عدا ذلك، لا شيء يُعيدُنا إلى تلك الأرخبيلات سوى الشعر وتجارب بعض الرسامين، وجولاتنا مع مفاوضات السلام في الشرق الأوسط، ومذابح أطفال البوسنة، وتزييف الانتخابات وارتفاع الأسعار ونضال النقابات المشلول، والأسى في العيون، فلا ينبغي أن ننسى أننا في طنجة التي لا نعرف من أين يبدأ الحوار معها، أمن المدن أم من التواريخ المنسية التي يتذكرها العسكريون المتقاعدون وتشهد عليها معالم المدينة؟

نبدأ من الرماد. ها رمادك أيها الصاحب فيه ترى مدينة رمادا يسير في شوارعها المُؤَنَّقُونَ مَزْهُوِّينَ بربطات العنق والورد والصاحبات وقوارير الويسكي والكسب السهل، ثم ها هي مقهى باريس، قدرنا اليومي الذي فيه نُعَاوِدُ تعبنا الطنجاوي كما نعاود الحوارات المُعَلَّقَةَ على الأكتاف كصليب المسيح، والتي لا تزيد إلا ضجرا وإحساسا بالزمن، فمن منا سوف يخرج أيها الصاحب ومن منا سوف يدخل؟ نحن هنا على قمة قارة، وهذا لا يعني شيئا سوى أننا في لحظة وقوف، نحتل البحر ونغرق فيه ونستقبل كل الرياح، والمدينة لا تواجه العواصف بشيء ما عدا أغنية قديمة تعود إلى الأربعينات، غناها الحسين السلاوي في الحلقة على عوده وهو يحاول أن يجمع من حوله الأسماع، في ساحة جامع الفنا، في باب الساكمة بفاس، في مقاهي سلا الشعبية، يوم كانت طنجة عالية وقد رآها المغني عالية بِسَوَارِيهَا، تلك السَّوارِي المُعَلَّقَةُ في خياله والتي لا مكان لها في المدينة، غير أنها ذلك العُلُوّ، عُلُوُّ طنجة على نفسها وعلى غيرها من المدن. وأنا لا أنساك أيها الصاحب. أعرف مزاجك وأهواءك، فأنت مزهو بأغنية أخرى للحسين السلاوي، هي أغنية الكحلة التي أكلت الخليع في الكوزينة، وأنت ترددها باستمرار مع الإيقاع الذي تُحْدِثُهُ بما بين لسانك وأسنانك:

اشْتْكْ اشْتْكْاشْتْكْ

الإيقاع ساخر والكحلة تُخرج لسانها. لسان أحمر كأنه وَالِغٌ في الدم. ولعلها ترقص على ذلك الإيقاع، فقد أتى بها الحسين السلاوي من مكان ما ليجعلها واقفة في الكوزينة، تأكل خِلْسَةً ما سرقته من خليع هو خليع الذين يُشَغِّلُونَهَا عندهم في الكوزينة، كما أراد الحسين السلاوي أن يكون هو من ضبطها تزدرد بسرعة قطع الخليع من غير مضغ، فغنى لها:

يا الكحلة يا بنت الكحلة

اكْلِيتِي الخليع فالكوزينة

قالت الكحلة مَا شْكْمَانِي

سيدي ربي اللي أعطاني رزقي

وأية كحلة أيها الصاحب؟ سلوية أو بيضاوية أو فاسية أو طنجاوية؟ بعض الناس لا يتصورون أن تكون الفاسية كحلاء، وكأن السواد يختص بأناس بعينهم، لا يوجدون إلا في أماكن معينة، ربما هي أماكن العرق والكدح اليومي. الكحلاوات في كل مكان. وأنا أمي كحلاء. لم أقل لك ذلك وأنت تغني أغنية الحسين السلاوى وتُوَقِّع:

اشْتْكْ اشْتْكْاشْتْكْ

لو كنت قد قلت لك إن أمي كحلاء لطلبت مني أن أحدثك عنها ذلك الحديث الذي لم تسمعه بعد، فأنت تعرفها، ولقد أكلتَ من يديها، وربما تكون مثلي أيها الصاحب قد رضعت من ثدييها، أو أنامتك في حضنها كما كانت قد أنامتني، ثم استرضيتها مثلي فلم تحصل على رضاها وهجرتها ذلك الهجر الجميل لتصبح مقطوعا من شجرة. هل هي أمك أم أمي تلك الكحلاء؟ هل أنا وإياك شقيقان؟

عندنا الكحلة الطنجاوية، تعرفها؟ السيدة نورية، التي تدخن كازا سبور وتشرب التِيْنْتُو كل صباح قبل أن تبدأ شغلها كَمُنَظِّفَةٍ وطباخة في أكثر من بيت للعزاب. تخرج من بيت وتدخل آخر. في تمام الساعة الواحدة زوالا تكون قد ركبت الطْرَامْبِيَّا حتى تنتقل إلى حي آخر، بعدما نظفت أواني ثلاثة مطابخ وطبخت ثلاثة أطعمة وسَوَّتِ الأغطية على ثلاثة فرش، ولاحظت في البيوت

الثلاثة ما لاحظت، رغم العادة التي جعلتها تألف كل شيء، تقول هذه هي الفتنة. أنا امرأة مفتونة. الطّْرَامْبِيَّا تأخرت. عَلَيَّ أن أدرك البيتين المتبقيين حتى أنظف الأرض وأواني المطبخ وأطهو الطعام. السي المختار لا يأتي إلى البيت إلا في الليل. سيكون عشاؤه جاهزا. وأنا نسيت أين خبأت سيجارتين أو ثلاثة انتزعتهما من علبة كازا سبور. كَاخَةُالتِّينْتُو في المطبخ. وأنا لا أعرف كيف أبدد هذه الفتنة التي في رأسي دون أن أشرب كأسين أو ثلاثة من التَّينْتُو في كل دار أدخلها. كلهم يشربون. لكني أحتفظ لنفسي في أماكن معلومة بكاخةالتينتو. خمس كاخات في خمسة بيوت. تنفد الواحدة وأضع في مكانها أخرى. من قبيل الأمانة ألا أَمُدَّ يدي إلى شراب أو سجائر من يستخدمونني. أحيانا يدعونني إلى كأس إذا ما كان اليوم يوم أحد، أو إذا ما كان لديهم ضيوف وأَخَّرُونِي قليلا عن الوقت. مفاتيح البيوت تختلط علي. لا أرى البعض منهم إلا بعد شهور. حتى في آخر الشهر يتركون لي أجري الشهري في الكوزينة. يضعون لي ما يريدون طبخه في مكان ظاهر في المطبخ وأنا أفهم. أحيانا أضيف بعض الأشياء من عندي إذا كان لي مُتَّسَعٌ من الوقت، وكانت الكَانةمزيانة. الرجل في الحبس منذ شهور والأولاد أتركهم في الدار وأعرف أنهم يخرجون ليلعبوا في الطريق. أخاف عليهم من السيارات. أخاف أن أعود يوما فأجد أحد أولادي في مستشفى القرطبي، وقد نقلوه بعد أن داسته سيارة. الله يستر. أعرف أنه سوف يخرج من الحبس وسيعود إلى عادته القديمة، فهو يستولي على أجري الشهري ويشتري الحشيش ويترك الأولاد عراة جائعين، وأجر الكراء لم ندفعه منذ سنتين. أنا هكذا مزيانة. مصاب لو كان حكموا عليه بعشرين عام، حتى نرتاح.

مسكينة، السيدة نورية، كحلة طنجة. تعرفها أيها الصاحب؟ كلهم ينادونها السيدة نورية، وكأنها الزوجة المحلوم بها، فهم لا يحلمون بأكثر من زوجة تطبخ

الطعام وتنظف أواني المطبخ، أما أنت أيها الصاحب، فأنا أعرف أنك تحلم بمثقفة عضوية تناضل من أجل التغيير، وحتى وإن تركت لك شؤون المطبخ، فلسوف تقوم بتلك الأشغال وأنت تحاورها حول الفقراء والتغيير وهي غائبة عن البيت.

نورية أم ساميا؟

تلك هي كحلتنا الطنجاوية، السيدة نورية، فهل أكلت الخليع في الكوزينة؟

مفاتيح طليطلة

حين دخلتُ الكوزينة رأيتُ أواني الطين فوق الرف، والعشب اليابس الذي تمتد سيقانه وترتخي في الفراغ، والفناجين وعلب التوابل، فأحسست بروح هذا المكان تَسْرِي في روحي.

أخذت أستعيد من الوهم شعلة اللهب التي كان قد أَجَّجَهَا رجل غريب، ربما طويل أو قصير، نحيل أو بدين، بحار أو جندي أو ضابط في المخابرات، لوطي، فنان يزهو باللون، أو ربما عاشق شريد يحب البحر.

كل هؤلاء أو ربما أحدهم ذلك الرجل الذي كان يسكن الغرفة قبل الصاحب، أو لعله رجل آخر أو رجال آخرون غير هؤلاء، حتى القتلة والمُرَابُونَ وتجار السوق السوداء، اللَّيْلِيُّونَ، نادلو المقاهي والحانات، رجال سبتة، الريفيون الذين هربوا من الحرب والمجاعة ثم استوطنوا طنجة وتاجروا فيها واغتنوا، المُدَلَّلُونَ وأصحاب السطوة على السوق الداخل، الإنجليز والطليان والهنود، وتجار فاس، ومنهم العُصَابِيُّونَ والمصابون بالذهان والمصابون بالسهر والمصابون بالصمت، وحتى الأمير شكيب أرسلان خلال زيارته لطنجة، أما الحبيب بورقيبة فلا يمكن أن يكون قد سكن هذه الشقة، ما دام (فندق رامبراند) يتباهى بوضع لوحة تذكارية عند مدخله تؤرخ لزيارة المجاهد الأكبر لطنجة وإقامته في نفس الفندق، وربما يكون قد سكن هذه الشقة وليام بوروز أو شارون تيت، فأرواح هذا المكان هي التي تقول، كما يَدُلُّ أثاثه وأشياؤه الصغيرة على تعاقب أولئك الأناس، وخدوش الحائط، وثَلْمَةُ الكأس، والسكين التي فقدت حدتها، والرماد الذي هو رماد الموقد.

هل أنا أتوهم؟

ها هي الغرفة تعيدني من أوهامي، وها هي الأحصنة نافرة على الجدران،

والشموع والقناديل مطفأة، وأنا في صباحي وساميا لم تأت، فلعلها تنطفئ أو تتوهج في مكان ما، تشرب كأسا من المارتيني مع مثقف قدم إلى طنجة من أمريكا اللاتينية، أو شاعر جاء من الجزر. لكني أتوقع أنها ما تزال نائمة في سرير لم تنم عليه قبل الليلة الماضية، واللحاف يغطي نصفها العلوي، وساقاها عاريتان، والوجه مائل إلى جانبي والذراع هو الوسادة، فالوسادة فوق الرأس، بهاتحمي عينيها من شعاع صباحي يتسلل من النافذة، وحينما يوقظها ذلك الشعاعتحس بالمسمار الذي ينخر في الرأس كما تحس بتفسخ العظام، وتُشِيحُ بوجهها عن النافذة وعن ذلك الجسد الآخر المحتمل وجوده على الفراش معها، وربما يكون هو ذلك الشاعر الذي جاء من الجزر، أو المثقف القادم من البيرو، فكلها مجرد احتمالات.

ماذا تظن أيها الصاحب؟ هل ولدتها أمها وسلمتها لك على التو، أم أنها قد كبرت داخل بيت من زجاج؟ لا بد أن لها تجاربها قبل أن تعرفها وتعرفك، وهذا لا يعني أنها قد أصبحت عاهرة أو باعت جسدها لأحد في يوم من الأيام.

ها أنا أبني صورة لساميا من الأوهام، وهي ليست مجرد أوهام على كل حال، فأنت لم تقل لي، ولكنك كنت تحدث عنها نجومك المتهاوية وأقمارك التي غابت، وكنت أنا أستمع إليك، وهاأنا أَلُمُّ ذلك الشتات وأبني صورة لساميا، كما أبني تاريخا لهذا المكان المسكون بأرواح من عاشوا فيه وفاتوا، فماذا عليَّ أن أفعل وقد تركتني وحيدا أيها الصاحب؟

ساميا بزبيبتها الناتئة على حافة الذقن اليسرى وعينيها المتوحشتين، تعود الآن كما كانت، صبية تدرس في (كوليخيو رامون إي كاخال) مع الإسبان وأبناء الأعيان، وطريقها من البيت إلى الكوليخيو كان قد تغير، فقدكانت تأتي من طريق للالة شافية، وكلاكسونات السيارات تلاحقها وهي تسير جنب الرصيف وبعض الرجال يطلون من داخل تلك السيارات ويلحون في النداء

ويتغزلون بكلمات بذيئة، حتى أخذتها لالة رحمة للعيش معها في شارع الحرية، واكتفت بزيارة أمها في لالة شافية خلال أيام الآحاد. بعد أن تبنتها تلك المرأة العاقر، أخذت تشتري لها الفساتين والعطور، وتجعلها تحرص على تنظيف فمها بالفرشاة والمعجون بعد وجبات الطعام، وعلى تمشيط شعرها الأسود الفاحم، ليصبح ناعما ولامعا بالمرطبات والمراهم.

تكون تلك الصبية قد تركت كَارسيا لوركا قتيلا في الفصل الدراسي مع آخر الكلام. تمضي في الطريق وهي تردد آخر بيت، أول بيت، وأنطونيو ماتشادو يغرق في صمته قبل أن ينزع القبعة ويقرأ:

أيها العابر آثارك على الطريق
لا شيء أكثر
أيها العابر ليس ثمة من طريق
يتشكل الطريق لدى المسير
لدى المسير يتشكل الطريق
وحين نلتفت إلى الوراء
نشاهد الدرب الذي أبدأ
ليس لنا أن نعود فنطأه.
أيها الطارق ليس ثمة من طريق
بل نقوش في البحر.

تُردد أول بيت من القصيدة، ثم تقرأها لنفسها مستعيرة صوت المدرس. حتى رائحة الثوم التي في فمه تكون قد وصلت إلى أنفها وهي تجلس في الصف

الأول، ترتدي البذلة الدراسية الزرقاء. الأزرق فاتح وغامق والبَالُومِيطَةُ في العنق. الساقان عاريتان نحيلتان أمام السنيور خوان، مدرس الأدب، الأندلسي الذي يحب العرب ويحب طنجة.

كان السنيور خوان يكرر نفس الحكاية، يتوقف عن إلقاء الدرس ويحكيها، أو يستوقف التلاميذ وهم يستعدون للخروج من الفصل ويبدأ حكايته التي غدت معروفة لدى الجميع، لكنه يبدو مسرورا حتى وهو يعرف أن التلاميذ كلهم يعرفون حكاية المفاتيح، ويغتبط وهو يعيد حكيها لهم، متجاهلا ما يظهر على بعضهم من تأفف أو شرود أو حركات طائشة تعبر عن رغبتهم في الخروج.

يقول جدته ما زالت تحتفظ بمفاتيح بيتهم القديم في طليطلة، ويصير ساحرا وهو يتحدث عن المفاتيح، فيشير بيديه ومن عينيه يخرج ذلك الشعاع الوَضَّاء الذي ينير في الظلمة لكل الناظرين حتى يروا المفاتيح وقد صارت تستقر فوق راحة اليد. وسواء كانت مفاتيح وهمية، أو هي مفاتيح بيته في طنجة، أو مفاتيح السيارة وقد أخرجها من جيبه بسرعة دون أن يرقبه أحد، فقد كانت مفاتيح بيتهم القديم في طليطلة هي التي تستقر فوق راحة يده كما يقول، ورائحة الثوم الممزوجة برائحة الخمرة تساعد السنيور خوان على تغميض اللحظة وإخراج المفاتيح من الظلام وهو منشغل بوصفها، مفاتيح كبيرة صنعها حدادون من القرن التاسع. الحداد الطليطلي كان يصنع الدروع والرماح والسيوف والمفاتيح، وكان ذلك الحداد الطليطلي يقول للناس في ذلك الوقت يجب عليكم أن تغيروا اسمها. سموها مغاليق. أَوَ ليست تفتح وتغلق؟ ستغلقون بها أبوابكم اليوم. سموها مغاليق، أما أنا فأصر على اعتبارها مفاتيح، مخالفا نصيحة الحداد الطليطلي، فبها سوف نفتح بيتنا القديم في طليطلة، ذات يوم.

يشير بيديه وتتألق عيناه. يذكر اسم جدته. ماريا. كانت في بيت أجدادها

حديقة، والحديقة مزروعة بالورد، وكانت جدتها تسقي الورد وتنتظر عودة زوجها من أسواق طليطلة، والأسواق تعيش لحظات التقتيل والنهب والاعتقال، والصلبان الكبيرة تقطع الطرقات ذهابا وإيابا، وتنصب المشانق، والزوج لم يعد،فهل نهرب أم ننتظر؟ أجدادها لم يهربوا قالت له، ولكنهم أورثوا المفاتيح لأحفادهم.

تختلط الحكاية برائحة الثوم الممزوجة برائحة الخمر، وطريق ساميا إلى (كوليخيو رامون إي كاخال) حافل بالأشياء والمشاهدات، ولكن عليها ألا تتأخر. لالة رحمة تعد لها الأوقات، وهي تنظر إلى الساعة، بعدما قرت عينها بساميا، وساميا وردة تتفتح، وها أنت تشم العبير أيها الصاحب.

هل هي التي حكت لك كل هذا وأنت حكيته لي أم أنني قد توهمت؟ كما أتوهم عوالم هذه الشقة، وأرواحها التي تسكن المكان، وأتوهم صاحبتك أيها الصاحب، فطنجة مجرد وهم من الأوهام. من منا يعرف طنجة إذا لم تكن نكتة جارحة على طرف لسان، أو أغنية، أو كتابا أو جرحا في الحائط، أو خرابا ينهض أمام الأعين؟

ماذا تكون طنجة بدون أقاويل (مقهى السنطرال)؟ المقهى يَتَجَدَّدُ في هذه الأيام.الصباغون يَطْلون السقوف والجدران والتجهيزات الجديدة على الرصيف. النادلون الذين اشتغلوا في هذا المقهى، ومنذ أيام طنجة الدولية، يقفون عند الباب حائرين كطيور تخشى أن تتهدم أعشاشها. تجار العملة يراقبون عمل الصباغين دون أن يتمكنوا من شرب الشاي الأسود بالنعناع وفصوص الزهر، ومن غير أن يستطيعوا الجلوس إلى الطاولات والنظر من خلل الزجاج نظراتهم المعروفة إلى الخارج. يقفون حول المقهى، قبالة حانوت ميمون بائع الجبن البلدي والرغيف وخبز المقلاة، وميمون يخزر نحوهم. المالك الجديد للمقهى طلب من الصباغين أن يرسموا الراية الحمراء بنجمتها الخماسية الخضراء على السقوف والجدران، ولقد تكلم كثيرا عن الصيف

والسياح وعن تغيير كل شيء في المقهى حتى تزول منها رائحة الإصبنيول ومن كانوا من الرجال معهم. جاء من تاوريرت واشترى المقهى من ذلك الريفي الذي ظل مخلصا لعشرة الزبائن المداومين. وكلهم من الذين تركوا مقهى الرقاصة وتحولوا مع تحولات العصر، فقد جاءت البوتاجاز ومعها عصارة القهوة، وجاءت وجوه الأجانب من كل الجنسيات، وتعددت أنواع العملة، حتى جاء ذلك اليوم الذي خرج فيه زبائن مقهى السنطرال إلى ساحة السوق الداخل ورفعوا الرايات الحمراء وصور مُحَّد الخامس وعبد الخالق الطريس، ورددوا:

الحرية جهادنا حتى نراها

وقف من ورائهم كل عمال الميناء، وسكان (بني مكادة) و(دشر بن ديبان) و(القصبة)، وزغردت النساء.

طنجة تتبدل أيها الصاحب، وهاهي ترتدي لكل يوم زيه الخاص، وكأنها دمعة في العين أو لحظة في ذاكرة مجهولة، أو توديع دائم لزمن لا يقيم.

هل أنا أتوهم أيها الصاحب؟

من منا يعرف طنجة أيها الصاحب؟ هرقل؟ تشرشل؟ الأمير شكيب أرسلان؟ ميمون؟ المرأة الزرقاء؟ رواد مقهى الحافة أو (مقهى السنطرال)؟ أليس لكل طنجته أيها الصاحب؟ لكن طنجة التي تسكن أوهامنا تظل دائما أبهى من طنجة التي نحيا فيها. اسأل السنيور خوان.

اسأل السيدة نورية. أما ميمون فلن يعطيك الجواب.

السيد هرقل يحتسي خمرته
ويطلب حَسَاءً سَمَكِياً
وصحنا من الإِنْكْوَاضُو

هل أنت أيها الصاحب مغارة من هذه المغارات؟ وأية مغارة هي مغارتك أيها الصاحب، أهي مغارة النفس أم مغارة الكتابة أم هي مغارة الدم والعطش والارتواء، مغارة ذلك الرحم الذي لا أسميه؟

أ أنت واحد من أحفاد هرقل أيها الصاحب؟ انظر. العين تتربع فوق القمة، وكما يكون الجسد قد صارع نفسه كي يظهر أكثر بهاء في مكانه الشهي هذا، فقد خَطَتِ القدم خطوتها من الأزل نحو الأبد، ومن طنجيس إلى طنجة، وعلى الصخرة سِمَةٌ أو أثر أو ذكرى أو مسافة هي تلك التي ظلت بين الأبد والأزل. انظر أيها الصاحب، فعلى الصخرة وشم أو بقايا دم. الجسد الذي توارى في المغارة يبدأ خروجه من الظل والماء. الجرح يكبر على الصخرة كما يكبر في القدم. الأزل يتبدد كما يصبح الأبد خرافة وما أبعد طنجة وما أقربها. ما أقسى الغربة، فقد اسْتَوْحَشَ ابن الآلهة ولم يصر إنسانا. هم رموني هنا ونَسُونِي. كلهم يتحدثون باسمي وأنا مَنْسِيٌّ هنا في هذه المغارات. لا شيء يهم. جرحي ليس في القدم وحدها، بل في تجاعيد الوجه وشروخ الجسد. ابن الآلهة استوحش وشاخ، ولو كان قد صار إنسانا لما كانت الأسطورة الهرقلية، ولو بقي كما كان، نصف إله ونصف بشر، لظل حيا في كتب الرحالة والمغامرين، وهذا هو بحر الظلمات يشهد على أيامي، لكنهم رموني هنا ونسوني.

هاهي الفجوة المطلة على البحر. لقد تعودتم على أن تروها في الكارت بوسطال. هناك كلام كثير يقال بين قطرة الماء وقطرة الماء في هذه المغارات.

أَرَقِي أنا في الليالي، والكدمات الزرقاء المحيطة بالعينين. ها قد تَأَنْسَنْتُ. تَأَنْسَنَ ابن الآلهة ورأى كل شيء من حوله فما عاد بإمكان هرقل أن يبقى هو هرقل، وها أنا بين أن أكون الوحش أو أكون الإنسان، وهذا هو عذابي.

الحجارة قطعوها. جعلوا منها رِحِيّاً لطحن الزرع. كم رحى اقتطعوا من ظلماء رحمي؟ كم من يد امتدت لتقطع الحجارة وأنا أرى وأسمع، دون أن أستطيع أن أنتفض وأَدُكَّ الحجر على الحجر؟ كم من قذفة من قذفات الموج توالت على الفجوة ليشرب منها الظلام؟

الجسد يخرج إلى شمسه ونهاره مشعا في البحر وفي السماء، ولعله لم يعد يستطيع الخروج، فالجرح الذي في القدم يكبر ولا يلتئم، وجرح الصخرة ما يزال ينز منه الصديد.

العين ترى كل شيء، فهي تخرج من هذه المغارات وتقف قبالة سور الكسالى، والرجل الوحيد الذي يمكن أن يحس بها أو يتعرف عليها هو عبد النبي، فهو يرفع عينيه اللتين تظهر نظراتهما منكسرة، ويرى من يقف بجواره ويطل على الميناء، فيتكتم على ما رآه ويحتفظ لنفسه بالسر. وحتى لو صرخ في (شارع باستور) وقال هذه هي عين هرقل فمن كان سيصدقه؟ هل سيصدقه أحد؟ ربما كان المارة سيصفونه بالجنون.

ثم ها أنا أدخل (صيدلية الشفاء) وأشتري مَرْهَماً لجرح هذه القدم العجوز، وبعدها أذهب إلى إحدى حانات الكورنيش أو إلى (مطعم أليسيا). لكني رأيت في (شارع باستور) ما رأيت. العصا المغروزة بالمسامير هوت على العنق والرأس. الدم يتفجر. عندما كان قد طرق المسامير على كل جوانب العصا فقد أراد أن تكون الضربة قاتلة، والرجل أخفى عصاه تحت الجلباب وظل يسير في الشوارع ويصرخ ويشتم. قالوا أدركه الهيجان الذي كان قد أدرك ميمونا، بياع الجبن

البلدي والسمن البقري وعسل النحل، ولم يتوقع أحد أن تكون العصا تحت جلبابه، والمسامير ناتئة على كل جوانبها، ولم أتوقع أن يضرب بالفعل، فقد ظننت أن جنونه قد قاده إلى عشق عصا على ذلك الشكل، حتى رأيته يهوي بها على الرأس والعنق والدم يتفجر.

المرأتان معا في سن الخمسين تقريبا، وهما أختان ربما أو صديقتان. الشعر أصفر والعينان زرقاوان. الملابس بسيطة ولا أثر للماكياج على وجهيهما. حين رآهما تخطوان في شارع باستور اشتد به ذلك الهيجان وأخذ يصرخ ويشتم دين النصارى ويحيي دين النبي العربي. وأنا هرقل، ابن الآلهة. لا دين لي. فلو رآني ذلك الرجل لكان قد أصاب رأسي بضربة من عصاه المغروزة بالمسامير، لكنه لم يرني، ورآهما فأخذ يقول كل النصارى كفار، والدبابات والطائرات تُغِيرُ على أطفال المسلمين. النصارى يحاربون المسلمين واليهود يقتلون المسلمين ونحن هنا في طنجة نفرح باليهود والنصارى. جاسوستان قال. هاتان جاسوستان. أمريكا تبعث الجواسيس وإنجلترا تبعث الجواسيس. الموساد. هاتان المرأتان من الموساد. عيناه تجحظان وهو يصرخ. أخرج العصا من تحت الجلباب وأصاب إحدى المرأتين في العنق. تفجر الدم. لم تسقط المرأة. ضرب الأخرى على الرأس. تجمع الناس وأحاطوا بالمرأتين. لم يهرب. العصا في يده يُلَوِّحُ بها ويحاول أن يوجه ضربات أخرى. أجلسوا المرأتين على الرصيف، ولما ازداد هياجه أدخلوهما إلى الصيدلية في انتظار سيارة الإسعاف. سمعت رجلين يتجادلان حول أهمية السياحة في الاقتصاد الوطني وحول انتشار ظاهرة الجنون. كسر زجاج الصيدلية بضربة من عصاه. لم يقترب منه أحد. لم يهرب. ظل يصرخ ويشتم.

سرت في شارع الحرية. وصلت إلى السوق الداخل ورأيت (مقهى السنطرال) وقد تغيرت، كما تغيرت وجوه الزبائن. نزلت نحو مطعم السنيورة

أليسيا ثم هبطت أدراج سينما الأمريكان متجها نحو المرسى. هناك رأيتهما واقفين. العين في العين.الجسدانمُنْتَصِبَانِ وعينا الواحد منهما تنظر إلى عيني الآخر. لا يقولان شيئا. لا يتشاتمان. لا يتضايقان من مرور الوقت ونظرات المارة. النظرة تفصح عن الحقد. كانا كَديكَيْن يستعدان للمبارزة. واحد يرتدي كاسادورة زرقاء والآخر يرتدي صدارا أصفر من الكاشمير. الرجل صاحب الكاسادورة تَحَيَّنَ اللحظة، وفتح وسطاه وسبابته في حركة عنيفة مفاجئة فقأت عيني صاحب الصدار الأصفر. تفجر الدم من العينين. صرخ صرخة واحدة لم تنقطع:

ـ عيني!

هرب صاحب الكاسادورة، والمفقوء العينين ظل يصرخ بلا انقطاع ودمه يسيل على الوجه والعنق، ولا أحد يقود خطاه.

القهوة التي شربت في مقهى باريس أفسدتها رؤية الدم في صباح الأحد هذا، وليت القدم كانت قد حطت في مكان آخر، وليت الجسد كان قد تعالى نحو شمسه وسمائه، أو أن العين قد عادت إلى ظلامها في المغارات وما رأت ما رأته. القهوة مُرَّةٌ ووجوه المقهى هي نفس الوجوه. رجل يقف أمام مرآة المقهى، يخرج من جيبه مشطا وينظر إلى خصلته وهو يُسَوِّيهَا بأنامله قبل أن يمر عليها بالمشط، ومؤخرته تتراقص، يبتسم لنفسه ابتسامته النِّسَائِيَّة، أو ربما كان يبتسم لأحد الزبائن وهو يراه في المرآة. ظل يغني لنفسه أغنيته التي لم يسمعها أحد وعيناه على المرآة تقاربان عينيه في وجهه، وهو يَدْلَكُ خصلات شعره ويمشطها بتلذذ ولهو.

جاء النادل وطلب منه أن يغادر المقهى. أخرج من جيب سرواله قطعة درهم ووضعها في يد النادل وهو يقول:

ـ هذا ثمن استخدام المرآة.

وأخذ يضحك وهو يتراقص، والنادل مشدوه، يبعد يد الرجل التي تمسك بالدرهم عن يده، والرجل يقول:

ـ ميرسي. كَراسياس. ثانكيو.

والابتسامة النسائية لا تفارق محياه، حتى انسحب من المقهى ويده تخفي المشط في جيب السروال الخلفي.

حطت ذبابة في فنجان القهوة، وكانت الوجوه قد اختفت وراء الجرائد المتعددة اللغات، ومن حين لآخر تُقْلَبُ الصفحات وتظهر بعض الجوانب من الوجوه، وإذا ما ظهر الجانب السفلي لأحدها أَلْحَظُ الأسنان الذهبية وحركات التلمظ. بعضهم يتحدثون عن سهرة البارحة في فندق الموحدين وسهرة هذه الليلة في (فندق سولازير). الذبابة تضرب بجناحيها وتحاول أن تتسلق حافة الفنجان. البنكيون يتأففون من صباح اليوم القادم. ماسحو الأحذية وباعة الجرائد. الذبابة تغرق. السطيحة المطلة على المرسى. ها بحري وقد رست فيه بعض السفن. أهو أبد طنجة؟ أين هو أزل طنجيس؟ ها هو أبدي. الجرح في القدم والجرح على الصخرة التي كانت قد حطت عليها القدم. وها أنا لن أتمكن من الإمساك بالحوت من ذنبه وهو يمرق في البحر، حتى أرفعه إلى عين الشمس وأشويه بنارها الحارقة من غير أن أحرق أصابعي، فقد تَأَنْسَنَ ابن الآلهة بعدما اسْتَوْحَشَ. جسدي لم تعد أعشاب البحر تُتَوِّجُهُ. ثم ها هو مطعم روميرو. اكتظاظ المحل ووقوف الزبائن في الخارج ينتظرون أن تفرغ بعض الموائد. النادل يغمز لي. يشير لي بيده أن أدخل. هل عرفني؟ لماذا إذن قَدَّمَ دوري على باقي المنتظرين؟ المائدة فارغة. والنادل لم يسألني عما سأطلب، فقد طلب من الطباخ أن يُحَضِّرَ له حساء سمكيا وصحنا من اللَّيِنْكْوَاصُو. وجاءني بقارورة من البينو بلانكو.

أدولفو يغازل برتقالة

يجلس الصاحب في الغرفة على الأريكة وهو يقرأ إلى أن يمل من القراءة فيستلقي على السرير. هكذا تصورته، ورغم أنه ليس هنا فهو حاضر عبر النباتات الخضراء والأعشاب اليابسة والشموع والقواقع والخمر والضحك والكتب، وأشياء أخرى يعرفها هو وحده ولا يقولها لأحد، وأنا لم أكلف نفسي فضول البحث عنها في الأدراج أو من خلال رائحة الفراش، أو بين ثنايا علب السجائر وأوراق الكتب.

حملت في عيني أشياء الغرفة إلى المطبخ، مع كثير من اخضرار القلب واخضرار النبات. الرؤوس الورقية المضمومة إلى بعضها تتألق ضاحكة وتستمع إلى إحدى سوناتاتموزار، التي كنت قد شغلتها في جهاز الكاسيت قبل أن آتي إلى المطبخ. النباتات تتشبع بانهيار شلال صوتي آت من أنامل عازف البيانو، الذي يحرك شعر المفرق نحو جهة الرأس، من فوق إلى تحت.

هذه هي الفناجين والصحون، إنها روح من أرواح هذه الشقة. كم فنجانا وكم قهوة؟ كم عدد الصحون وكم من الفِلِيتِيسِ والكَامْبَا والبصل والرِّيمُونَاتْشَا والخس وكل ما يربك العين؟ كم؟ البحارة كلهم عادوا. هذا وشمه على الزند. الصدار الأزرق المخطط والعينان البحريتان. خمره في الدَّنِّ والأغنيةُ التي يجهر بها تمتد إلى أن تقارب أذن الحبيبة. هل عاد حقا؟ ها فنجان القهوة المسائية، ورائحة السيگار تملأ الغرفة، حيث تغرق الأفكار في متاهات المدن الساحلية وأضواء الحانات والرقص والثرثرة. حتى الزند القوي لم يوفر لأدولفو راحة المنام في المدينة. طنجة التي كتب اسمها بكل اللغات، طينجيس، هي التي خدعتني وفَلَّتْ ساعدي. وأنا لا يهمني من هو الأفضل، فرانكو أم خوان كارلوس.

كلاهما حاكم. ملك أو رئيس، الديمقراطية أو الفاشية وغيرها أمور لا تهمني. حتى رجال الشرطة والدرك لا علاقة لي بهما، فأنا أُبْحِرُ في البحار ولا أعرف سوى إرسال الإشارات عبر جهاز اللاسلكي متى دعت الضرورة. بعض الموانئ لا نُدْخِلُ إليها الباخرة بأنفسنا. يأتي إلينا في البحر من يعرف مسالكها ويقود الباخرة حتى يُدخلها ويُرسيها في الميناء. لكنهم خذلوني. عدت إلى الشقة وبكيت. كيف يرى أدولفو المسكين سفود الكباب في عينيه ولا يتحرك؟ كيف لا يبعد السفود عن عينه ويهشم القارورة على رأس من يضع السفود أمام العين؟ كيف لم أتصارع، ولم أقلب الحانة رأسا على عقب، وظهرت بمظهر الذليل الباكي، أو المخنث؟

ربما يكونون قد ظنوا بي بعض الظنون، أو تصوروا أن أدولفو البحار واحد من أولئك الذين يأتون إلى طنجة بحثا عن الفحول.

وأنا، ألست فحلا؟ هل يمكن للفحل أن يبحث عن الفحل؟

كل الغانيات قلن ذلك وأَكَّدْنَ فحولتي، فقد كنت أسألهن ويؤكدن لي قبل أن أدفع ثمن اللقاء، وعندما أرى التأكيد صادقا في عيني الغانية أدفع لها الثمن مضاعفا.

هنا، في هذه الشقة، على هذا الفراش، كنت قد سألت إحداهن في السابعة صباحا، ونحن لم ننم بعد، وقالت يكفي، أنت سألتني هذا السؤال أكثر من عشر مرات، وأنت لا تحتاج إلى طرح هذا السؤال، ويكفي غناؤك بصوتك الجهوري. ألا ترى أن صوتك صوت رجل حقيقي؟

قلت لها وهل هذا كل ما في الأمر؟ فقالت لي كل شيء يدل على أنك رجل حقيقي يا أدولفو، حتى صدرك الأزغب وذراعاك الموشومتان. ضحكت

هي وأنا لم أضحك. نسيت اسمها. كانت واحدة من الغانيات. حين سألتني عن البحر لم أجد ما أقول لها عنه. قالت تريد أن تهرب معي في الباخرة وذكرت أنها لا تتوفر على جواز السفر، وأن أثمان جوازات السفر المزورة غالية جدا، والدولة لا يمكن أن تعطيها جواز السفر ما دامت لا تتوفر على شغل معترف به، وهي ليس لها معارف من رجال السلطة.

أعجبتها الأغراس فأعطيتها نبتة شوكية رائعة نسيت اسمها، فأنا أنسى الأسماء وأتذكر الأشياء عادة. كانت تلك النبتة ينمو عليها لِحَاءٌ كالأظافر، وسط فَصٍّ قرمزي كأنه الجبنة الطرية، واللحاء أزرق يفيض على حوافِّ المزهرية بلونه الأخضر المشع. ماذا كنت سأفعل؟ هي قالت لي أنا فحل وطلبت مني أن أهربها على ظهر الباخرة وأنا أعطيتها النبتة ومائة درهم، ثم خلدت إلى صداع الرأس وانتظار موعد الإبحار القادم.

طنجة لن أراها إلا بعد شهور. ولكن ها هي الشقة. لا شقة لي في أي مكان في الأرض. حتى السواحل الإسبانية والإيطالية لم أكتر فيها بيتا، فالفنادق كلها تعرفني، كل الغرف، ودورات المياه، ووجوه موظفي الاستقبال الذين يعرفون أن أدولفو لا يعود إلى الفندق من سهراته إلا في الصباح، ويظلون يكررون وصاياهم وتحذيرهم من تحمل أجر يوم إضافي في حالة التأخر في النوم إلى ما بعد الثانية عشرة ومغادرة الفندق بعد ذلك.

أدولفو ينام متى شاء ويستيقظ متى شاء. ينسحب من الفندق في الثالثة أو الرابعة بعد الزوال ولا يدفع أجر يوم إضافي. وإذا كان موعد الإبحار لم يحن، فذاك هو وقت السربيسا، الفطور مع شريحة من لحم الخنزير واحتساء غراريف من السربيسا ريثما يتبين لي ما سأفعل بنفسي. ومن يفطر في الثالثة أو الرابعة بعد الزوال لا يتبين له ذلك إلا في آخر المساء، بعد أن يهدأ صداع الرأس.

ساعتها يدخل السنيور أدولفو بملابس البحرية أزهى فندق على الشاطئ ويهبط الأدراج نحو المرقص. يشرب الكأس الأولى والثانية، وحينما لا يأبه له أحد يرفع صوته الذي يعلو على صوت الموسيقى وينشد رباعياته. ينظرون نحوه بانزعاج وتذمر. يتوسل إليه أحدهم أن يسكت. يسمعهم يتكلمون بالإنجليزية والفرنسية والإسبانية، فهو يلتقي دائما بأناس من كل العالم، وكل هؤلاء لا يستطيعون إسكات صوته. كلهم يخافون زنده الموشوم الذي يكشف عنه في كل فصول السنة، مُظْهِراً للناس أنه يعيش كل الفصول في فصل واحد يتردد كثيرا في تحديده لنفسه، ثم يخطئ أو يظن أنه قد أخطأ، ويقول لهم الشتاء في المكان الفلاني والخريف في المكان الفلاني، تاركا لجهل رواد المرقص بهذه الأمور أن يثير الفضول والتطلع إلى وجه أدولفو.

لم أشتر شقة في أية بقعة من الأرض. اشتريت قبري في سرگسطة. واشتريتُ الورد مرة فلم أجد لمن أهديه، فتركته عند مدخل إحدى العمارات. اشتريت الكيس الوقائي ولكني أعطيته لأختي الصغرى كي تلهو به وتنفخ فيه الهواء. اشتريت نبتة استوائية احتفظت بها في الظل، لكني تركتها في الشقة بعد أن سلمت المفتاح للعجوز الإسبانية ولم تعد لي أية شقة في أي مكان ولو في طنجة.

طنجة آه، حين أعود إليها سوف لن أستطيع أن أنسى. لن أتمكن من أن أهشم قارورة النبيذ على الرأس. السفود في العين. بعد أن مرت اللحظة بسلام انتقلت إلى مائدة أخرى وأخذت برتقالة وصرت أكلمها. جعلت لها نهدين وشعرا أصفر. غنيت لها رباعياتي. لكني لن أنسى السفود، ولن أنسى أن ذلك قد حدث لي في طنجة. قالوا لي قل، من الأفضل، فرانكو أم خوان كارلوس؟ وحين لم أقل، وضعوا السفود أمام عيني حتى أقول. بقيت أنظر إلى السفود وإلى عيون القتلة. حاولت أن أتراجع قليلا ولكن السفود صار أقرب إلى العين.

قلت لا أعرف. ألحوا في السؤال. قلت لهم دعونا نشرب ونغني وقالوا لي لن نفعل ذلك حتى تقول لنا من الأفضل، فرانكو أم خوان كارلوس. اقترب السفود من عيني أكثر. هل أنسى؟ هذه هي طنجة.

حينما فرغت الشقة تنفس مالكها الصعداء، وقال للسنيورة ماريا لا بد من رفع أجر الكراء. ها هي المفاتيح. رغم أن أدولفو كان لا يأتي إلا مرة في الشهر فشقة كهذه تستحق إيجارا أكثر مما كان يدفع. أعرف أنك كنت تتصرفين فيها خلال غياب أدولفو. ذلك شأنك، وها قد تركها من غير أن نُجْبِرَهُ على ذلك، وعلينا الآن أن نبحث لها عن ساكن جديد.

لم تعترض ولم توافق. عيناها تتطلعان إلى أسماء السكان على الرسائل التي جاء بها موزع البريد، وهي تقلبها ظرفا بعد الآخر. وضعت مفاتيح الشقةالتي كان يسكنها السنيورأدولفوفي جيب مريلتها ودخلت غرفتها.

جاء نيزي. شاب أشقر حقيبته في اليد، يبتسم للأشجار والملائكة الذين يراهم وحده.فارع القامة، نحيل والخصلة الشقراء تتدلى على كتفيه. حينما صعد مع السنيورة ماريا إلى الشقة ابتسم للبحر والجبل، وللسطوح وهوائيات التلفزيون. تأمل الأغراس واللوحات التي على الجدران. قالت له:

. سُولُو؟

رد عليها

. سُولُو.

أخرج من جيبه أوراقا نقدية سويسرية وأعطاها للسنيورة ماريا. قالت له سأنزل إلى السوق الداخل لتحويلها إلى البسيطة أوالدرهم. حينما خرج لم يغب كثيرا. رأت السنيورة ماريا في يده بعض اللفافات. قالت له وهو يصعد السلم:

ـ المصعد معطل. سيتم إصلاحه بعد أيام.

لم يلتفت نحوها، وكأن كلامها لا يعنيه. من الخلف رأت سرواله الضيق الذي يكاد يكشف عن عظامه التي تطقطق وهو يصعد الأدراج.

اللفافات ها هي. أخرجتُ منها السكر والقهوة والملح والتوابل، وبعض المعلبات والبيض. وضعت كل تلك الأشياء في المطبخ واتجهت نحو الحمام. رأيت وجهي في المرآة. مسحت شفتي السفلى بأطراف أصابعي وحزنت لكوني لم أمر على رموشي بقليل من الأزرق حتى تَبْدُوَا أَخَّاذَتَيْنِ، وقلت لنفسي سأفعل هذا فيما بعد.

هيأ نيزي القهوة وشربها من نفس الفنجان الذي كان يشرب منه أدولفو. أخذ الفنجان في يده وذهب إلى الشرفة. اتسعت طنجة أمام عينيه. الآن أتذكر لوزان. الاخضرار وسقائف القرميد والواجهات والمطاعم السياحية. ها أنا أَرْتَدُّ نحو طنجة. هنا سأرتخي، ولابد أن أجد لي معشوقا. تركت فنجان القهوة الأزرق، المُوَشَّى بِتَوَاشٍ على شكل زهور ذهبية على حافة الشرفة وذهبت إلى الحقيبة فأخرجت قارورة العطر وصببت منها قليلا على راحة اليد. مسحت بيدي عنقي ووجهي. استراحت النفس وارتخت. بعد حين سينفتح لي عالم طنجة، والدولارات ستصل، ولن أحس بعد الآن بعدم الانسجام مع جسدي. لن يكون الجسد عذابا في طنجة.

خرجت وعدت إلى الشقة. جئت بالشموع والقناديل. قناديل الزيت تَمُدُّ ذُؤَابَاتِهَا من الفتحة وجوفها الطيني لم يمتلئ بالزيت بعد. وزعتها على بعض الأماكن، فوق الرفوف والمدفأة، في المطبخ، على الكومودة في غرفة النوم، فوق مائدة الأكل، ثم عدت أنظر إلى وجهي في المرآة. أشعلت كل الشموع فتلألأت الغرفة. هذا هو عرسي.هذا نهاري. ها الجسد تتراقص ظلاله على المكتبة

وستائر الشرفة والمدفأة، ولابد أن يكون الجسد عاريا حتى تكون ظلاله عارية هي الأخرى. لا مرايا. المرآة الصغيرة التي في الحمام لا تكفي، وهي مثبتة على الحائط. الجسد يتراقص والذراعان نافران. ها أصابع اليد المفتوحة على الجدار. الأصابع رشيقة تكاد تظهر في الظل زغيباتها الشقراء وأظافرها الحادة.

ليتني قلتله.ابتسمت له ولم أقل شيئا. حين قرأت على لوحة المحل الأمامية:

بَّانَادِيرِيَّا – بَّاسْطِيلِيرِيَّا

دخلت ثم وقفت وراء الزبائن. أنتظر دوري. رأيته. أسمر عريض الكتفين. عيناه كحيلتان والشفتان زرقاوان من أثر التدخين كما خمنت. اشترى حلوى وأخذ يَلُوكُهَا في فمه بسرعة وخرج. ابتسمت لهوأشاح بوجهه عني. رميته بنظرة أخرى من عيني ولم يستجب. أخذت واحدة من الخبز الإيطالي وخرجت من المحل. كان قد اختفى. هو ذاك ولابد منه. أين أجده الآن؟ بقيت أتطلع للناس والوجوه في شوارع طنجة عدة أيام حتى رأيته للمرة الثانية في (قاعة شاي مدام بورط) يتحدث مع فتاة في مثل سنه، يجالسهما شاب آخر أسمر مثله. رأيت الفلجة بين ثناياه وشفتيه الزرقاوين وتأكدت من أنه هو. جلست قبالته وأخذت أبتسم لجنوني وملائكتي. لكنه راح. وضع النقود على جنب الطاولة وانسحب هو والفتاة والشاب الذي يرافقهما.

حينما خَاصَرَ ذلك الشاب الفتاة استراح قلبي وعرفت أنها ليست فتاته. هل أكون راحته وجسده وعمره وبلواه؟ كيف؟ راح ولم أتجرأ على الخروج وراءه، فهو غير منفرد، ونظراتي التي رميته بها ارتدت إلي ولم تلق منه سوى الاستغراب والتجاهل.

أهؤلاء هم أناس طنجة؟ قيل لي في كل شبر من طنجة ينبت جسد قوي

أسمر، رجل يرغب في أن يكون رجلا لأي شاء. أليس في جسد كل رجل امرأة؟ ألا يليق بي أن أتزوج حبيبي، أراه في عيني بعد أن رأيته في أحلامي؟

ما الذي يضر إن كان حبيبي شابا طنجاويا أسمر كحيل العينين؟ ما الذي يضر؟

هاهو الجسد وظله، والفراش فارغ أبيض، وطنجة كاذبة حتى على ألسنة الأفاقين وتجار الرحلات الوهمية إلى أرخبيلات الصمت والخدر اللذيذ الذي تتألق فيه الحواس وتصبح العين مرآة للعين. طنجة الكاذبة أغوتني وأنا ركبت المغامرة. طنجة بصوامعها غواية، ببحرها وحاناتها وزجاج الواجهات في شوارعها. وأنا غويت. قرأت أخبار طنجة في صحف بلادي ثم راودتني طنجة فجئت إليها بجسدي. الجسد يزحف على حد اللهب، بين الذؤابة والذؤابة، بين الشمعة والقنديل والجدران والظلال، وما كانت طنجة لتعلم بوجودي.

مرات ذهبت إلى (قاعة شاي مدام بورط)، وجلست أرقبه وهو لا يأتي. شربت عصير الطماطم بالفلفل الأسود وحلمت وابتسمت للمرايا ولأشباح رجال كانوا يمرون من أمامي. النادلات بملابس بيضاء يترددن على الموائد ويبتسمن للزبائن ويضعن الطلبات بأدب، وأنا لم أكن أتوقع أن تكذب عليَّ طنجة فأقضي كل هذه الأيام و الليالي وحيدا، دون أن يكلمني أحد أو يقترب مني أحد، فهل أنسى طنجة وأحوال دولاراتي إلى مكان آخر؟

لاحظت السنيورة ماريا أن السنيورنيزي يكثر من الدخول والخروج، فهو يصعد الأدراج ولا يستقر لبعض الدقائق في الشقة حتى ينزل الأدراج ويخرج من باب العمارة، فعرفتْ أن شيئا يشغله.

قالت له وهو يهم بصعود الأدراج:

ـ لم يصلحوا المصعد بعد.

نظر إليها ولم يجب. قالت:

ـ قلت لك سوف يصلحونه بعد أيام ولكنهم لم يأتوا. طلبناهم لإصلاحه ولم يأتوا بعد.

ظل ينظر إليها دون أن يتكلم.

ـ أعجبتك الشقة؟

ـ نعم. الشقة جميلة ولكن طنجة لم تعجبني.

ـ لماذا؟

ـ لم أجد أناسها بالصورة التي كنت أظن.

ـ هل اعتدى عليك أحد؟

ـ أبدا.

ـ لماذا إذن لم يعجبك أناس طنجة؟

ـ مسألة شخصية. جئت أبحث عن شيء لم أجده.

ابتسمت، واتسعت عيناها، وقالت له:

ـ وما هو هذا الشيء؟

ضحك. تراقص جسده وقال:

ـ لا تُلِحّي عَلَيَّ في السؤال.

تفحصته بنظراتها وقالت:

ـ الحشيش؟ إذا كنت ترغب في الحشيش فيمكن أن تجده في كل مكان في طنجة.

غيَّرَ الحديث وقال لها:

ـ فاتورة الكهرباء أعتذر عن دفعها، فأنا أفضل ضوء القناديل والشموع.

صعد الأدراج وهو يتراقص. ظلت تراقبه لأيام وهو يتردد بين الصعود والهبوط ويتحاشى النظر إليها أو أن يتبادل معها التحية، وحتى بعد أن تم إصلاح المصعد ظل يصعد الأدراج إلى الطابق الرابع مُحَمَّلا في بعض الأحيان ببعض الأشياء. ثم لاحظته وهو يأتي مَرْفُوقا ببعض الشبان غالبا ما يتراوح عددهم بين الثلاثة والأربعة، ترتبك نظراتهم حين تسمع السنيورة ماريا وقع الخطى على الأدراج وتخرج كي تلاحظ حركة الزوار. لكنها لم تقل لهم شيئا، ولم تسأل المسيونيزي عنهم، ما دام يرافقهم بنفسه في الصعود إلى الشقة، والسكان لم يشتكوا من أي ضجيج، والرسائل لم تصله منها أية واحدة حتى تتعلل بإعطائه الرسالة وتسأله عن الشبان الذين يرافقونه، وفاتورة الكهرباء يدفعها مع الإيجار بعد أن أقنعته بأنه في حاجة إلى استخدام الثلاجة والتلفزيون وجهاز الموسيقى، وهو حُرٌّ في أن يستضيء بالكهرباء أو بالشموع والقناديل. لم تعرف كيف ترضي فضولها، وليس لديها ما تقول للمسيونيزي سوى أن يحترس من الزُّهْرِي، ولكنها لم تتجرأ على أن تقدم له هذه النصيحة، وحتى وهي تثرثر مع بعض الجيران فإنها لم تكن تستطيع أن تتهمه بشيء.

اختفى نيزي. لم يخبرها بإخلاء الشقة. انتظرت أن يظهر لأكثر من شهر، وكان قد دفع لها أجر ثلاثة أشهر مقدما، فلم تتسرع في دخول الشقة أو كرائها لشخص آخر مخافة أن يظهر من جديد. لكنه اختفى. استخدمت مفتاحها الخاص الذي لا يعرف أحد أنها تتوفر عليه. رأت أشياء فظيعة على الفراش. اختلست بعض الأباريق والشموع وهبطت. بعد أيام عادت لتنظيف الشقة، وأخذت ما في المطبخ من قهوة وأجبان ومعلبات، ثم أخبرت المالك بأن

المسيونيزي قد رحل.

كان الكهل الإنجليزي قد جاء بسترته الفضية القديمة والياقة المقلوبة والوجه السمين الطافح بالحمرة. تذكرته الآن. لعله قد مات أو انتهى إلى إحدى دور العجزة. كنتُ شابة حين جاء. أعطيته المفاتيح وصعد إلى الشقة وحده. حدست من خطاه أنه عسكري. بعد يومين لاحظت أنه قد أتى بصندوق كبير يحمله رجلان من الجانبين وهما يتمايلان ويرفعانه إلى فوق فعرفت أنه ثقيل جدا، والتقطت من كلام الحمالين أنهما قد أتيا به من الميناء.

ذات مرة وهو يخرج اقترب مني وقرص خدي. ابتعدت قليلا وهو يركز نظراته على عيني ويبتسم. قال لي إنه اختار السكن هنا من أجل أن يرى عينيَّ قريبتين منه، فابتسمت له بخجل، واحمر خداي، وقال لي جاء من (فندق بِيسِيرًا) حيث لم يجد راحته، فالردهة تضج بصخبالإيطاليات والفرنسيات، وهن يعرضن أجسادهن شبه العارية، وضباط القنصليات يشربون في حانة الفندق ليل نهار، وقال لي بنوع من التعالي أنتِ حارسة في هذه العمارة ولكنك جميلة، وامتدت يده لتقرص خدي فتركته يفعل، وخفضت بصري.

قال لي لن يكون محتاجا إلى تحضير الطعام في الشقة، فقد تعود منذ مجيئه إلى طنجة أن يتناول وجباته في (مطعم أَلِيسْيَا). تعجبت. كيف يكون الرجل بهذا التعالي وهذه الأبهة وهو يأكل في مطعم أليسيا الشعبي البَّايَّا السريعة التحضير والسمك الرخيص ويشرب الخمرة الرديئة التي يقدمها المحل في حدود كأسين مع الوجبة؟ كيف؟ يقيم في فندق بِيسِيرًا ويتناول طعامه في مطعم أَلِيسْيَا؟ لابد أن وراء هذا الإنجليزي سرا من الأسرار.

بعد تردد قررت أن أدخل الشقة في غيابه مستعملة مفتاحي الخاص. كنت أريد أن أعرف ما في الصندوق. حينما أخبرني بأن الملك مُحَمَّدا الخامس سيزور

طنجة عادت إليَّ الظنون وازداد فضولي وقررت أن أدخل الغرفة ساعة أراه وهو يغادر باب العمارة. كيف عرف؟ من أخبره بزيارة الملك لطنجة، وهل سيزور الملك طنجة حقا؟ هل هناك شيء في الصندوق؟

ماريا لا ينبغي أن يغيب عنها شيء حتى وإن كانت قنصليته الإنجليزية معززة بالحراس والأسلحة والحواجز والتمثال والساحة الخضراء والشارة الملكية المُتَوِّجَةِ لأعلى البناية.

لا شيء يجب أن يخفى عليَّ، أنا ماريا. الأزبال أستطيع أن أعرف منها بعض الأشياء، من شرب ليلة البارحة، من أكل الجزر، ومن زوجته حائض، فبعض الأشياء تُرمى مع الأزبال حتى ومكانها ليس هو القمامة. حتى الرسائل التي تصل إلى سكان العمارة أشمها، فمنذ أن اكتشفت تلك الرسالة وأنا أشم كل الرسائل، أدعكها قليلا بين يدي وأتسمع الصوت هل هو صوت الورق أم صوت شيء آخر.

جاءت تلك الرسالة وعلمتني. تسلمت الرسائل من موزع البريد وقرأت الأسماء ونبهتني الرائحة. عرفت أن رائحة ما توجد في رسالة من الرسائل. أخذت أشمها واحدة بعد أخرى حتى عرفت. هذه رسالة للصنهاجي، الأعزب الذي يسكن في تلك الشقة التي كان قد سكنها قبله آخرون كثيرون. نظرت إلى الأدراج وإلى باب المصعد مخافة أن يكون نازلا الأدراج أو خارجا من باب المصعد ويراني أضع رسالته في جيب المريلة.

أغلقت عليَّ الباب وفتحت الرسالة فوجدت بين الورق والورق لوحة رقيقة ذات لون زيتي. مادة عجينية. هذا حشيش! تعجبت لكون حاسة الشم عندي أقوى من حاسة الشم لدى كل الرجال الذين تداولوا هذه الرسالة. ألست ماريا؟ وضعت اللوحة العجينية في الدرج، وفي الغد جاءت رسالة أخرى ذات

رائحة، وفي الأيام الموالية توالت رسائل السنيور الصنهاجي، فأخذت أدعك تلك اللوحات العجينية حتى صيرتها على شكل كرة، وكلما انضافت لوحة عجينية قادمة مع رسالة إلا وكنت أدعك الكرة وأُسَوِّيهَا وهي تكبر، حتى انقطعت رسائل السنيور الصنهاجي.

كان يسألني كل يوم هل وصلته رسالة، وأنا أقول له لو جاءتك رسالة لكنت قد وجدتها عندي، أو لصعدت بها إليك وأنت في الشقة.

يتأسف ويخرج. الأغلفة التي عليها اسم وعنوان الصنهاجي كنت أحرقها وأصب عليها الماء حتى يذهب رمادها الأسود مع البالوعة، فقد كنت أعرف أن السنيور الصنهاجي يشم مثلي، ولو تقوت حاسة شمه قليلا لنزل الأدراج متسرعا من غير أن ينتظر وصول المصعد إلى الطابق الثالث، ليطرق باب بيتي ويقول لي بُورْ فَابُورْ يا سنيورة ماريا أعطني ما جاءتني به الرسائل، فالكرة في الدرج، لكنه لم يقل، ولقد رحل ولم يقل.

فتحت رسائل الصنهاجي وقلت لكم ما كنت قد وجدت فيها، كما فتحت شقة الكهل الأنجليزي وعرفت، لكني أخاف أن أقول حتى لنفسي ما كنت قد وجدت، رغم أنه قد رحل فأنا لن أقول لأحد، ولن أقول حتى لنفسي. يا ويلي لماذا تذكرت؟

الصاحب وصاحبه

هذا هو كلام الموتى. أصبحت أُكَلِّمُ الموتى وأراهم يمارسون حياتهم في هذه الشقة وكأنهم لم يموتوا أو لم يغيبوا عن الأعين. أخلقهم من الوهم وأحييهم ثم أقتلهم.

هل صدقتم أن أدولفو قد عاش في طنجة بالفعل؟ وهل هناك بَحَّار بهذا الاسم؟ قد يكون وقد لا يكون.

وهل صدقتم حكاية ماريا مع رسائل الصنهاجي؟ لا توجد ماريا بوابة أو غير بوابة في هذه العمارة، وإذا أردتم أن نتحدث عن الواقع فبوابة العمارة هي حليمة، وأخشى أن يأخذني الخيال إلى خلق حكايات حول هذه المرأة.

والصاحب؟

أي صاحب؟

أنا أم هو؟

الحاضر أم الغائب؟

أَيُّنا الصاحب؟

إذا أردتم أن تعرفوا الحقيقة فكلانا الصاحب. هو صاحبي وأنا صاحبه. هو يناديني الصاحب وأنا أناديه الصاحب. وربما يكون قد قال لكم إنني قد قضيت سنتين في السجن بعد أن حكم عليَّ في تهمة سياسية، فهو لم يكن معي هناك. كان يجلس في مقهى باريس ويرى الناس ويقرأ الأخبار في الصحف. بعدما خرجت من السجن ذهبنا معا الى (حانة الجرح في الحائط) وشربنا هناك كأسا مجانية من نخب رجل سمعناهم ينادونه السي التمسماني، ويدعونه فيما بينهم

الشقروف. خرجنا من الحانة بعد أن لم يعجبنا أناسها وضجيجها ولا أتذكر أين ذهبنا بعد ذلك.

الصاحب كدوار طنجة، هَبَّةٌ من رياحها الشرقية أو لحظة وداع تتكرر في اليوم عددا لا يحصى من المرات. صار الصاحب لا يفارقني، نلتقي في البيت والشارع والحانة والمقهى، حتى صار وهما من هذه الأوهام، كوهم ساميا التي لم تأت، كوهم طنجة التي عرفناها وما عرفناها بعد، كعين هرقل التي توهمت أنها قد رأت، وها أنا وحدي في الغرفة مع هذه الأوهام.

ساميا،

لعلها امرأتي أو عيناي، أو لعلها العواصف التي تهز شراعي.

حَلَقَةُ النار لم أتجرأ على اختراقها، حتى أخذتني ساميا لكي أجول في مرايا النفس وأصقاع الطفولة، وأسمع بُحَّةَ النداء الجريح.

جنية أم عصفورة؟

قمر راحل أم عسل وفواكه برية، تَجَلٍّ، إشارة أو تلميح لشيء، وهم أم ربيع للربيع، أم أنها مغارة من هذه المغارات؟

لا تصدقوا هذا الصاحب، فساميا وَهْمٌ نشترك فيه أنا وإياه، وهو راحل وأنا مقيم، أو أنا الراحل وهو المقيم، وساميا ليست كائنة إلا في المغارات.

الصاحب قال لكم وهو لم يقل لي، فأنا تركته في الشقة وسافرت الى الجبل، ولكنه قال أشياء كثيرة كان يسجلها على الأشرطة، وهي لن تصلح لشيء، فبعد أن استمعت إليها أخذت أضحك وأقول لنفسي لأي شيء يصلح هذا الهذيان الذي لا يشهد على أسطورة الصاحب، أسطورة أراد أن يخلقها بنفسه، ليعيشها الآخرون؟

هل كان يفكر في أن يستخلص منها سيناريو شريط سينمائي أو كان يريد أن يجعل منها مادة لرواية؟

الصاحب ليس زعيما سياسيا، وليس كاتبا، فالكتابة لها مغاراتها، وهو ليس قديسا أو مجنونا أو مصابا بالذهان. إنه الصاحب. أما أنا فصاحب الصاحب، أو أنا الصاحب، فلا فرق، والفرق لا يكمن إلا فيمن ينادي الآخر، فأنا أناديه الصاحب وهو يناديني الصاحب.

امرأة المنام

أحقا ذهبتَ إلى الجبل؟

لا أصدق، فأنا أعرف أنك مرتبط بمدينتك طنجة، وكل ما أعرفه هو أنك أيها الصاحب قد أتيت إلى (حانة الجرح في الحائط)، وهناك التقيت مع السي التمسماني، الشقروف كما يدعونه فيما بينهم، الحاضر على الدوام في تلك الحانة. ليله كنهاره،فالشقروف هو الشقروف، طنجاوي بُورُو، قُحٌّ من أقحاح طنجة، لكنه يتبدل مع الوقت كلما تبدل. يقول إذا ما صار الموقف أكثر صعوبة ومرارة يكون عليَّ أن أنسحب من تجارة لم تعد تُربِح شيئا لأدخل من باب آخر. أنا أعرف نفسي. التمسماني هكذا دائما، لا يقبل أن يخرج خاسرا من شيء. ها هو. ها أنت أيها التمسماني تقابلني في المرآة. في كل المرايا. حينما أتحاشى النظر إليك في المرآة تظهر لي صورتك في كوب الشراب. التمسماني لا يشرب الماء. كل أنواع الشراب يشربها ما عدا الماء، فقد تركه لمن لا يشربون الشراب.

ها أنت أ السي التمسماني، كأنك لم تتعب. الطربوش الأحمر والجلباب الرمادي من القماش الإنجليزي. وماذا لو غيرت طربوشك الأحمر بالطربوش الوطني، ألن تصير شبيها بمحمد الخامس؟ جميل كما رأيته في الصورة. دخل قلبك. رجل يحب بلاده ولا يريد أن يرى هؤلاء الخنازير هنا. عندما يأتي لزيارة طنجة لابد أن تخرج الى الشارع لتراه. اسمع. لا ينبغي أن تخفض بصرك. يقولون كل من يرى الملك لا يستطيع أن يُديم النظر في محياه، ربما من فرط الحياء، وربما للوقار الذي يرتسم على وجهه، وربما للحب الذي في القلوب. لكن يجب أن تراه، وأن تخرج إلى الشارع مُعَطَّراً مَزْهُوّاً بطربوشك الأحمر، وبعد أن يمر الموكب

تعود إلى ظلامك وخمرك وأصحابك. كلها جولة في الشارع وتعود.

منذ مدة لم تر ضوء الشمس، وكل ما تراه هو هذه الأضواء الحمراء والصفراء والخضراء، في وسط النهار وفي المساء وفي كل وقت. اختلط الليل بالنهار. هل نسيت أن العالم تضيئه الشمس؟ إلى أين ستنسحب إذا ما تبدلت كل هذه الأشياء ولم تعد طنجة منطقة دولية حرة؟ من أين ستأتيك الدولارات إذا تحقق حلم مُحَمَّد الخامس وأصبح البوليس المغاربة ينظمون حركة السير في الطرقات، وأصبح المغاربة يُسَيِّرون البنوك ويراقبون الميناء؟ التمسماني سيعرف كيف يتصرف، سينسحب أو يدخل التجارة من باب آخر. إذا ما تَمَّ إغلاق باب فعلى الإنسان أن يفتح أبوابا أخرى، والرجال الحقيقيون لا يموتون جوعا، ودون أن يأكلوا من أزبال أحد. الكلاب وحدها هي التي تبقى جائعة إذا لم تعثر في الأزبال على شيء. وهذا الكلب الذي أمامي رجل غير حقيقي، يَسْتَلُّ مني الدولارات، الورقة بعد الورقة، ولا يريني غير العكر والأسنان الذهبية والعظام المتخفية في ملابس من موضات قديمة. أليس عليه أن يشتغل جيدا حتى يكسب أكثر؟ ما عاد في طنجة غير هذا. روائح العطور وعرق الأجساد الفرنسية والإيطالية شيء لم يعد محتملا.عندما تدخل الإيطاليات والبلجيكيات والإسبانيات تصيبني روائحهن بالدوار. روائح خبيثة. كل الأجنبيات ذوات روائح تُغْثِينِي. كلهن أخذن مني. كل المومسات يسخرن من جلبابي وطربوشي الأحمر ويفرحن بي حينما أقرب الدولارات من عيونهن. ما عاد في طنجة شيء غير هذا. وهذا الكلب الواقف أمامي يقول لا يجد غير هؤلاء. البيضاويات والدكالياتوالحوزيات لا يستطعن اجتياز الديوانة في عرباوة، حيث يقف حراس الحدود الإسبان. المغرب أصبح مقسما إلى شمال وداخل. يقول لي هذا الكلام وكأنني لا أعرفه ثم يصف لي نساء دكالة ويقول اذهب إلى الدار البيضاء وزر

(ضريح سيدي بليوط)، وستجد الدكاليات والحوزيات في كل مكان.

وأنا قريب هنا من (ضريح سيدي بوعراقية) ولم أزره مرة واحدة في حياتي. ما شأني بالقبور والأولياء والأضرحة؟ ما علاقتي أنا بالموتى؟الموتى لا يبيعون ولا يشترون. لا يشربون الكأس المشعشعة. لا يضحكون. لا ينظرون إلى النساء ولا يشمون مثلي روائح العطور وقد امتزجت بروائح العرق.

أنا رجل يريد أن يعيش، لكني لا أستطيع أن أغادر طنجة. حتى الحماية الإنجليزية لم أطلبها. لا أحد يستطيع أن يزحزحني عن طنجة أو يمسني فيها بسوء. التمسماني يعرف كيف يدبر أموره. وأنت أيها التمسماني أَمَا تأخذ شيئا لا تعطي ثمنه؟ ألا تبكي أو تسقط عن الكرسي العالي الذي تستقر عليه في مواجهة المرآة والأضواء والقوارير؟ أسقط لحظة وأنهض. كلهم يسقطون وأنت لا تسقط. يحلو لك أن ترى امرأة في المنام. امرأة المنام خير من كل النساء اللواتي تراهن هنا. أوراق الدولار في الجيب العلوي للسترة، تحت الجلباب، في مكان قريب من القلب، والقلب تاه وأخذه الهول من حانة إلى حانة ومن امرأة لامرأة، وبين المرأة والمرأة كأس وبين الكأس والكأس امرأة. تُدخل اليَد من فتحة الجلباب وتُخرج أوراق الدولار من جيب السترة الأيسر. تُقربها من العين. تلمع الأسنان الذهبية. لعلها تضحك. ربما تضحك أو ظنت أنها بالضحك ستغريك أيها التمسماني. نابان من ذهب في حجم نابي الفيل، والثنايا من ذهب. هل أغرتك بخديها السمينين بغير أن تصفعهما؟ مع الضحكة تفوح رائحة الفم، ويبدو العكر الثقيل الاحمرار على الشفتين، تحت الأضواء الزرقاء، مُنَفِّراً، وخانقا للرغبة قبل أن تولد. حالما توقظك الضحكة أيها التمسماني من النومة التي أخذتك تراها تتمايل بردفيها الثخينين وتتظاهر بالسكر وهي لم تسكر بعد. تختطف منك الدولارات وأنت تلاعبها بدولارات أخرى رغبة في الملاعبة وملء

هذا الفراغ الذي يحيط بك في هذا المكان، وحينما تستنفد التلاعب بالدولارات تأمرهم بإخراج هذه المرأة الثخينة، فقد أفسدت الهواء رائحة عرقها. يأتون إليها ويجردونها عند الباب من كل الدولارات. تسمع صراخها وهي تستنجد بك وأنت لا تتدخل، فهذه الأمور لا تعنيك. هي ضحكت ورقصت وأكلت وشربت وهم أخذوا الدولارات. حتى بعد أن تخرج تلك المرأة تظل أسنانها تلمع أمام عينيك، ويظل جسدها السمين ووجهها المثقل بالأصباغ بَادِيَيْنِ في المرآة إلى جانب الطربوش الأحمر، ورائحة عرقها تملأ المكان. هل هي واحدة أخرى تشبهها؟ كلهن يتشابهن. لا فرق، نساء هذه الحانات كلهن سمينات معكرات الخدود، أما الأجنبيات فأنا لا أقوى على احتمالهن، فهن يسخرن من جلبابي وطربوشي وأنا لا أحتمل رائحتهن. وهذا الكلب الواقف أمامي كلما طلبت منه أن يأتي بغيرهن يقول لي ليس في طنجة سوى هؤلاء. عينك لا تقنع أيها التمسماني. أمامك النساء من كل الأجناس وأنت عينك لا تقنع. عينك خضراء وأنا لا حيلة لي.

أينك يا امرأة تأتي في المنام؟ ها دولاراتي. ما عادت في طنجة امرأة تأتي في المنام.

في مقهى الحافة

صعدتُ السلمَ بعد أن أخبرتني البوابة حليمة بأن المصعد معطل. ضغطت ثلاث مرات على زر الجرس. انتظرت بين فينة وأخرى أن أسمع خطاه في الممر، حتى ظننت أنه غير موجود في الشقة، وكدت أنقلب هابطا الأدراج، لكنه فتح الباب. بدا واقفا أمامي بوجهه الأسمر، يرتدي سروالا من القطيفة ونصفه العلوي عار، وشعره مبتل.

ظننت أن ساميا معه ولذلك تأخر في فتح الباب، لكن الغرفة داهمتني بكل أشيائها التي طالما أحببت أن أراها. الأغراس والمنحوتات والخيل الجامحة على الجدران.

بدا ساهما وعرفت من العشرة والتجربة أنه سوف يخرج من حالة الاكتئاب التي تسيطر عليه وسيضحك فجأة ويثرثر وكأنه يقول الكلام الذي كان ينبغي أن يقوله خلال أيام صمته التي مضت كلها في دقائق أو ساعات. ظل ينظر إلى سطح الطاولة، راحلا بأفكاره إلى مكان ما، فلم أعرف ما عليَّ أن أقول، وبقيت أنتظر اللحظة التي يتغير فيها مزاجه، حتى قال لي وهو يحني رأسه وكأنه يكلم نفسه. قال:

> ستبقى هنا أيها الصاحب وأنا سأرحل. عاشرت طنجة وعلى جسدي ندوب وآثار. المحارة لا بد لها أن تعرف متى تدخل قوقعتها ولا تمد قرون استشعارها نحو الخارج. لم يعد ثمة شيء ذو إغراء. نُدُوبُ طنجة لا تدفع لِلتَّصَوُّفِ ولعلها تقود إلى الجنون. هذه مدينة ملعونة، وليس علينا الآن أن نَتَّهِمَ أو نحاسب أحدا بإلحاق اللعنة بها ولكن علينا أن نتجنب الخسارات التي يمكن أن تلحقها هذه اللعنة بسلوكنا وأحاسيسنا ووعينا.

النظافة أصبحت سلوكا مثاليا والانتهازيون أصبحوا مناضلين، وكل هذا يحدث في مدينة الآلهة والوشم وحركة القيعان البحرية، على قمة القارة، عند ملتقى البحرين. مدينة الوحم. واحد يَتَوَحَّمُ على فيلا وواحد يتوحم على عضو ذكوري وآخر يتوحم على قنينة ويسكي. لم يعد في طنجة أحد يتوحم على الرصاص.

أقول الرصاص أيها الصاحب! ها أنا من غير أنأشعر، أستعيد مرحلة من وعي جيلنا أخذت تطمس ملامحها تبدلات الوقت.أحلام التغيير، وأرق الليالي، والتجمعات التي كان يعقدها الرفاق، والرهان على الاختيار الديمقراطي، بعد أن كان الرفيق الشهيد المهدي بنبركة يراهن على الاختيار الثوري. أنت أيها الصاحب، كنت ترفض الطوباوية ولا تعقد المصالحة مع واقع تستبد فيها السلطة العليا بكل شيء، وأجهزة المخابرات أكثر نشاطا، ألف مرة، من الخدمات الصحية التي تقدم للمواطنين، ومن مساعدة الفلاحين ومد الطرق لفك العزلة عن أراضيهم، ومن إصلاح التعليم، وتوفير الشغل للعاطلين. أيها الصاحب، هذه أرض يباب، من يحكمها، ولا يصلح من أمورها، سوف يجعل شعبه مقهورا إلى أن يثور، والثورة لها ثمنها في الأرواح والممتلكات، وما هي إلا سبيل يلجأ إليه الثوار، مضحين بدمائهم، من أجل تحقيق حقوقهم، ولا بديل عن الثورة في وضع فاسد، يكثر فيه لصوص المال العام، ومن يثرون سريعا، ومن يركبون على غياب الوعي عند من يستغلونهم في الانتخابات.

أيها الصاحب!

لست جبانا، ولست أتحمل أن أعيش هذا النسيان. عصبان مدني لا يستطيع أن يقوده زعيم قوي، بالطرق السلمية، وأن يطالب بالتغيير. كل الزعماء الوهميين يتواطؤون مع السلطة على تقديم بعض المسكنات للمواطنين،

نعيش وضعا خاصا، نظامه ملكي دستوري، وهو يدعي أنه نظام ديمقراطي، وأنه يحترم حقوق الإنسان، بينما واقع الناس، وحياتهم اليومين، يشهدان على فقر وبؤس وجهل وتخلف في الوعي، والسؤال أيها الصاحب، هو: من يتحمل مسؤولية تنمية شخصية ووعي المواطن؟ أهي الدولة بمؤسساتها التعليمية، وقنوات التلفزيون التابعة لها، أم هي الأحزاب التي من بين أدوارها أن تؤطر الخلايا التي تجمع من ينضمون إليها على وعي ببرامج الحرب، والأحزاب الأخرى، وما الفرق بين حزب اشتراكي وحزب ليبرالي، ومن هم هؤلاء القادة لمجموعة من الأحزاب، ليس لهم تاريخ وطني، وإنما احترفوا السياسية ودربوا ألسنتهم على خطابات لغتها فقاعات تتطاير في الهواء، فهي لا تمس عمق المأزق الذي تعيشه البلاد، والذي يهدد بالانفجار، كما أنها لا تملك استراتيجية لتدبير الاقتصاد وحل مشكلاته، وإصلاح التعليم ليتجاوز معضلاته، ومراجعة الأوضاع الهشة للتطبيب في المستشفيات العمومية، وتنشيط الثقافة والتحفيز على الإبداع وتشجيع القراءة.

أيها الصاحب، هل تعرف أننا نعيش داخل قوقعة؟

القوقعة هي مدينتنا، طنجة، مدينة النسيان، والنواسيين، والوراء والأمام،والشاي الأسود بالنعناع والزهر، والنصارى ومرشدي السياح، ومكاتب صرف العملات الأجنبية. مدينة الحانات والمراقص والمتع التي لا ينالها إلا الأجانب وتجار المخدرات، ولا ينالها حمقى المدينة وعقلاؤها على السواء.

التصوف أم الجنون!

كتابة الأشعار!

الوهن والخمول!

انتظار ما سوف يأت به الوقت!

لك هذه الخيارات أيها الصاحب، فاختر منها ما تشاء. وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذه المدينة فاذهب إلى (مقهى الحافة) واشرب الشاي الأسود بالنعناع والزهر، وسيأتي إليك من يخبرك عن كل شيء، عن طنجة التي في الذاكرة، وطنجة الأخرى التي تنهض أمام العينين كحد السيف. ربما ستعود إليه ذاكرته هذا الذي سيأتي إليك ويتذكر الطعنة التي وجهها نحو صدر رجل أو امرأة ويصيح صيحة مجنونة يهتز لها عُتُوُّ البحر، ثم يجري أمامك بين الأشجار ويقطع غصنا أخضر من إحدى الأشجار بضربة وحشية من سكينه التي اسْتَلَّهَا من تحته. أعرف أنك تعرف مقهى الحافة، ولكن المقهى يتبدل وأنت لا تتبدل أيها الصاحب. وكما تعلم، فطنجة لها أرواحها السبع، ومقهى الحافة إنما هو برزخ لإحدى تلك الأرواح.

ما الذي جرى أيها الصاحب؟

أهذا هو البحران؟

أنت تنتقل من موضوع لموضوع وطنجة هي التي تُلْهِمُكَ القدرة على نسج الأسئلة وهي التي لا تعطيك أي جواب. ما لنا وما لمقهى الحافة؟

بُحْرَانُكَ يخترق الأمكنة ويُوَحِّدُ بينها ويأتي بها إليك وأنت هنا جالس قبالة الطاولة تدخن وتنفض الرماد فوق الرماد.

البارحة اغتصبوا فتاة أجنبية في مقهى الحافة، واليوم تستطيع أيها الصاحب أن تذهب إلى ذلك المقهى، فلا شك أن البوليس يحوم حول المكان، وسيكون كل السفاحين قد غادروه مؤقتا، في لعبة يسمونها"أغمض عينيك" يلعبونها مع البوليس. لن يطعن صدرك أحد بسكين لمجرد أنك ترى البحر وتشرب الشاي.

قلت أيها الصاحب إنك لست جبانا، وعلى ما يخفيه كلامك من التباس، فالجبان هو من يتملق بأفكاره رجال المخزن حتى لا يَمَسُّوهُ بأذاهم، وربما كنت تقصد أنك لا تصالح رجال المخزن، ولكن الجبان لا تخاف عليه أمه كما يقول المثل، ففي مقهى الحافة يختلف الأمر، وعلى الإنسان أن يكون جبانا، وحتى إن كان طنجاوي أصيل، فهؤلاء السفاحون لا يعرف أحد أية رياح جاءت بهم، ولا متى تدفعهم تلك الرياح نحو تبديل اتجاه الكلام، وأي كلام مع سفاح؟

يضحك في الصورة كما كان يضحك قبل أن يلتقطوها له. الصورة نشرتها إحدى الجرائد المحلية وكتبت تحتها تعليقا صغيرا يقول:

يغتصب ضحاياه

ويحشو أفواههمبأعضائهم الذكورية

لم أُحضر لك الجريدة حتى تراه وهو يضحك. لعله الآن في السجن، ولكنه حتى وهو في سجنه تظل نسخه الأخرى حاضرة في مقهى الحافة، وذلك الرجل الذي سيأتي إليك ويخبرك بكل شيء، هو واحد من تلك النسخ، أو لعله الأصل، وهذا لن يهمك، فاحرص على إخفاء ورائك وأمامك ودافع عنهما بكل ما يلزم من حيلة ولباقة حتى يطمئن إليك ويتيقن من أنك لست واحدا من أعدائه، وساعتها لن يجعلك من ضحاياه، وسيبوح لك بكل شيء. تقول لي بعد أن أعود من الجبل أو من أي مكان آخر سوف أذهب إليه. الصباح وقت مناسب. ها هي البوابة الصغيرة المطلية باللون الأخضر، المظللة بالدالية والنباتات الطافحة. ادفع تلك البوابة وادخل. سر مع تلك المنعرجات التي تقود دائما إلى مفاجأة ما، ربما طعنة سكين أو اكتشاف رجل غاف وهو يستند برأسه إلى صدر عار والنهد تنفر حلمته في وجه السماء وتميل قليلا وكأنها تطل على البحر، كما يمكن أن تقود تلك المنعرجات إلى رجال يشربون من قارورة

الكونياك الموضوعة أمامهم على الحشائش، أو إلى امرأة مشنوقة على جذع شجرة، أو إلى جماجم تتدلى من فروع الأشجار تصيب الرائي بالرعب أول وهلة وهو يراها ثم حينما يديم فيها النظر يكتشف أنها من البلاستيك.

مقصورات القصب والحصر البالية وخابية الماء، ورفيف الأجنحة. هنا، تحت، صفحةُ البحر هادئة في امتدادها اللانهائي، تتبعثر عليها بعض الزوارق وبواخر الصيد. أشجار الدفلى، والأغراس النضرة تتوزع على شكل صفوف تتدرج في الانحدار نحو البحر. الكراسي الخشبية الزرقاء والموائد القصيرة التي تنتشر عليها الثقوب الدائرية حيث توضع كؤوس الشاي فلا تنزلق أو تسقط. نظرات متوجسة وهمهمات وضحكات رجال ذوي لحى غير حليقة.

اجلس. أرح جسدك وأرح عينيك. هذا الرجل ذو القميص الأحمر، نصف كم، الذي بادر إلى تعرية زنديه في هذا اليوم الربيعي، ربما يكون هو من سيأتي إليك ويخبرك بكل شيء. انظر. يتوارى خلف أشجار الدفلى. يعرف شجرته. كلها أشجاره وخلفها يتوارى. سيأتي من يقدم لك الشاي الأسود بالنعناع والزهر. هذه أيام الربيع. الشاي بفصوص الزهر يكون أشهى. لم أشربه منذ الربيع الماضي. اشرب. ليس لديك شيء يمكن أن تخسره هنا، ما عدا روحك، وإذا ما جعلت أناس هذا المكان يألفونك فسوف يدعونك لتتناول معهم الطعام، ولتشاركهم في الشرب من زجاجة "الْبرَانْدِي". كُلْ واشربْ حتى تحافظ على روحك. لا تُوَسْوَسْ نفسك وأنت تفكر في ورائك أو أمامك. كُلْ من الخروف المشوي وسابقهم إلى اللقم حتى يعرفوا من شهيتك للطعام أنك غير خائف. غَنِّ. اسألهم عن أسمائهم وقل لهم أنا اسمي الصاحب، الصاحب يناديني الصاحب وأنا أناديه الصاحب، ومن طول العشرة نسينا اسمينا ولم نعد نعرف لنا أنا وإياه اسما ما عدا الصاحب. قل لهم نادوني الصاحب، وسيضحكون،

وسيطلبون منك أن تنادي كل واحد منهم الصاحب.

انهض لتتجول وسط الأغراس وتطل على البحر، وإذا ما التقيت في تلك النزهة بمن يطلب منك عود ثقاب فلا تعطه إياه. لا تقل له ليس عندي عود ثقاب فسيعرف أنك غريب عن هذا المكان. قل له أنا أيضا أبحث مثلك عن عود ثقاب، وسيعرف أنك مثله تبحث عن ضحية. هل فهمت؟

الرجل الضاحك أبدا، الذي نشرت صورته في إحدى الجرائد المحلية، كان قد اختار كل ضحاياه من البوليس ورجال السلطة، وكما علمت، فقد كان يتتبع فضائحهم الجنسية، واستغلالهم للنفوذ للوصول إلى نساء متزوجات وبنات قاصرات، ولذلك كان يختطفهم ويمارس عليهم ما كانوا قد مارسوه على بعض الرجال والنساء من قهر وتعذيب وممارسات وحشية، ثم يقتطع أعضاءهم التناسلية ويحشو بها أفواههم ويرميهم في الشارع. والسلطة تكتمت على الحالة التي ظل أعوانها يوجدون عليها، وجرى البحث عن المجرم الخطير، سفاح طنجة، المصاب بعقدة السلطة كما كان يقال، حتى تم القبض عليه، واعترف بكل أفعاله، ولكن أشباهه ظلوا ينفذون نفس الجرائم، ولذلك قلت لك يمكن أن تلقى في (مقهى الحافة) الرجل الحقيقي أو إحدى نسخه، وأنت لا تعرف الفرق بين النسخة والأصل، وهذا الفارق لا يهم.

إذا سألوك عن الصاحبة فقل لهم غدا سآتي بها معي إلى هذا المكان. وإن سألوك عن اسمها فقل لهم اسمها ساميا. نعم، ساميا. ذلك لن يزعجني، فأنا أعرف أنك لن تأخذ ساميا معك في الغد إلى مقهى الحافة، وإلاَّ فعليك وعليها السلام.

عندما يخبرك ذلك الرجل بكل شيء، سوف تتأكد أيها الصاحب من أن ذلك أفظع بكثير مما يمكن أن تتصور، ولو أطلعك ذلك الرجل على بعض

أشرطة الفيديو ورأيت بنفسك مظاهر وأساليب التعذيب فإنني أخشى عليك من أن أرى صورتك على الصفحة الأولى لإحدى الجرائد المحلية وأنت تضحك، والتعليق الذي كتب أسفل الصورة هو نفس التعليق، كما أخشى على نفسي أيها الصاحب من أن يلتبس عليَّ الأصل من النسخة حتى ومعرفتي بك كبيرة، فأنا وأنت لسنا بأخوين ولكننا كالشقيقين، والواحد منا للآخر هو شقيق الروح.

قلت لك إن ذلك المقهى هو برزخ تسكنه روح طنجة، وهي واحدة من أرواحها السبعة، فلا تسألني عن البرازخ الأخرى، ولو عرفتها لتقمصتك أرواح المدينة.

ما له الصاحب لا يكف عن الكلام؟ هكذا هو دائما يعتزل الناس والشوارع والحانات لأيام يظل فيها صامتا حتى آتي إليه أو ألقاه في مكان ما فلا يَكُفُّ عن الكلام، وكأنه يقول ما لم أقله، ويَسْرَحُ بأفكاره فيما أسْرَحُ فيه، وهذا هو الصاحب.

لا نبدأ بشيء!
لا نتاجر مع الشيطان!

أيها الصاحب، هل وصلك خبر عمي ميمون؟ قال سأصعد إلى القصبة وأعيش بجوار الفقيه الرحموني حفيد الزاوية، أتعلم الرماية من الفجر إلى الضحى وأسمع فيما بين الفجر والمغرب كلام الفقيه حول الكتاب والسنة.

هل أنحر طنجة أم أطعنها في القلب؟

ها نبالي المسقية بالسم.

ها قلبي وها يقيني وإذا ما قتلتموهم فاقتلوني. خطاي متعثرة في طرقات طنجة والطريق إلى دار الفقيه تبدو أبعد مما هي. سأهجر الزوجة والبنات والبيت والحانوت بعد أن لقيت ما لقيت. كلهم كفرة. الكفرة في كل مكان، وأنا أتيت إلى طنجة من الجبل. أشجار التين والزيتون واللوز ما تزال. كنت ألهو بين الأشجار وأتسلق الصخور وراء الماعز ولا أبدأ الهبوط من الجبل إلا مع المساء. الرأس حليق ماعدا العرف في الوسط يمتد من منابت الشعر على الجبهة إلى قنة الرأس. حين رأيت أنا وبعض الرعاة النصارى يصعدون الجبل رميناهم بالحجارة. أعطونا النقود ولم نعرف ما هي ولا ما يمكن أن نفعل بها. هذه هي البَسِّيطات التي سمعت عنها. أحصيت الماعز وأحصيت البَسِّيطات على راحة يدي. عندما عدت إلى الدار وضعتها تحت الوسادة قبل أن أنام. وفي تلك الليلة حلمت بنصراني ضخم الجثة، عيناه زرقاوان ورقبته مُشَحَّمَة، ورأيت على أذنيه حلقتين على شكل قطع النقد التي كنت قد وضعتها تحت الوسادة. هل أخذها مني بعدما أعطاني إياها؟ سمعت والدي يقول النصارى يعطون ويأخذون، يعطون أقراص الدواء ويأخذون الأرض والغلال، يشقون الطرق ويأخذون المياه من الأنهار والعيون ليسقوا الأراضي التي انتزعوها من الفلاحين وصارت ملكا

لهم، وهاهو النصراني يطل عليَّ من بين الأشجار والقرطان يتراقصان حول أذنيه وهو يَتَشَبَّهُ بالنساء، وخداه المحمران الشحيمان كخدي امرأة. القرطان في الأذنين أكبر حجما من قطعتي النقد اللتين أعطاني إياهما وإن كانتا على نفس الشكل والهيئة. يظهر لي من وراء الأشجار عدد من النصارى كلهم يشبهون ذلك الرجل وكلهم يضعون على آذانهم حلقات على شكل قطع النقد. أصحو من المنام وأتذكر. كانوا ثلاثة، وكل واحد منهم أعطانا قطعتين لكل واحد. كنا خمسة أو ستة. هل أخذوا كل النقود وجعلوها حلقات تتدلى من آذانهم؟ تحسست النقود تحت الوسادة فلم أجدها. بكيت بِصَمْت حتى لا يسمع أبي بكائي فينهض ويضربني. بقيت أبكي حتى أخذني النوم فعدت أرى أولئك النصارى، وصلعاتهم تلمع تحت الشمس وكأنها مذهونة بالزيت. أنوفهم الكبيرة تكاد تلامس وجهي، وحينما أُقَرِّبُ يدي من الحلقات لأنتزعها من آذانهم أراهم وقد ابتعدوا عني كثيرا وهم يضحكون. في الصباح حكيت لأمي كل شيء وقلت لها إن النقود قد اختفت من تحت الوسادة. فقالت سرقها منك أولئك النصارى الذين أعطوك إياها. أعطوك إياها صغيرة وحينما كبرت أخذوها منك، ولكن يا وليدي يا ميمون، أنت بدأت. لماذا أخذت النقود؟ كم قلت لك لا تبدأ بشيء؟ أنت بدأت تأخذ النقود من النصارى وغدا تسرقها. أليس رعي الماعز أحسن لك يا ميمون؟

في المسيد تعلمت. اللوح والفلقة وضربات الفقيه على الرأس وأخمص القدمين. الجلباب القصير والنعل الجلدي نتركه عند باب المسيد. نتزاحم على نعالنا في لحظة الفرح بالخروج إلى الشمس والجبل من دائرة العصا والصوت الغليظ والكتابة والمحو. قطعة الصلصال في الجيب. السماق وطعمه المر كما وجدناه عندما تذوقنا منه أول مرة. اللكز بالمرافق. التهامس ونظرات الفقيه الشزراء. لم أعرف في ذلك الوقت من طفولتي أن نور اللوح المكتوب هو ما

سيشع من جبين الفقيه الرحموني. نور جاء من ذلك الوهج الذي توج سماء تكبر وتتسع فوق الجبل والأشجار وبيوت الصفيح المنبثة وسط الاخضرار، وحينما عَسْعَسَ الليل في الجبل ظهر ذلك النور اللألاء وأضاء كل شيء، حتى غمر القلوب واستضاءت، وها أنا أتذكر قلبي الذي كان عامرا بذلك النور وأنا صغير، وهو نور أراه في أيامي هذه وَضَّاحاً من جبين الفقيه الرحموني.

كانت أمي تُقَطِّبُ ما بين حاجبيها وقد بدا الوشم الأخضر الذي على ذقنها أكثر اتساعا. ذلك الوشم ما يزال أمام عيني، والنظرات الحزينة والعينان الكبيرتان والشعر الفاحم الملفوف في منديل أسود. الله يرحمها. وشمها الشجري المتفرع ينتهي عند أسفل الذقن حادا على شكل مسمار، وفي الأعلى تحت الشفة السفلى على شكل أغصان تتعرش. كنت أمتص الحلمة وأنا أشم رائحة الحليب الحمضية والوشم يملأ عيني. رجلاي تتدليان من فوق فخذها ورأسي يستند إلى الصدر.

حين ظهرت الشيبة في الرأس أخبرتني. المرأة رأتها وقالت لي شِبْتَ يا ميمون فقلت الله يكبرنا في طاعة الله، وتوضأت وصليت وحاولت أن أنسى ما كان قد دخل بطني من أكل من مال حرام. التوبة يقبلها الله من المؤمن. تمنيت لأخي الأكبر أن يكون قد تاب،فقد اختفى عنا،لم نعد نعرف له أي أثر. أما أخي الأصغر فلا يمكن أن يتوب وقد أخذته طنجة إلى نسائها ولياليها، وها قد صار كهلا ولم يتزوج بعد، وأم الخبائث لا تفارق فمه والعياذ بالله. وأنا قاطعته وطلبت منه ألا يدخل داري وقلت للبنات لا عَمَّ لكم. اِنْسَيْنَ عَمَّكُنَّ واعتبرنه قد مات.

ما كنت قد قرأته في المسيد وأنا في الريف لا يفي لأن أفهم كلام الفقيه الرحموني، لكننا نأتي إليه بين العصر والمغرب لكي يُفَقِّهَنَا في أمور الدين. كلنا

نأتي إليه، حلاقون، بحارة، باعة البْصَارة، نادلو مقاه، باعة في الطريق، والفقيه يُفْتِينَا في أمور ديننا ويسألنا عن حانات طنجة ومراقصها وعن حوانيت بيع الخمور وبيوت الدعارة فيتهيج الفقيه ويرفع صوته حتى يخرج عن هدوئه ووقاره فنتهيج معه، ويظل الفقيه مهتاجا يشتُمُ التلفزيون والجرائد والمدارس التي تُفْسِدُ أخلاق أبنائنا وبناتنا والكتب التي تنشغل عن كلام الله وكلام الرسول، ويقول لا كتاب بعد القرآن الكريم وكتب السنن وهي الصحاح الست، أما كتب هذا الوقت فتتحدث عن الحرام بالحرام، والتلفزيون ينشر الحرام بين الناس، والحكام الذين لا يمنعون الحرام لا أساس لدينهم، وأنا لا طاعة لي للحكام حتى يحكموا بما أمر الله، وأما طنجة التي دنسوا أرضها وسماءها ففيها ظهر آدم عليه السلام، والهدهد عرفها وقال هذه هي طنجة ووصفها لباقي الطيور والمخلوقات حتى نطقت كلها باسمها بعد أن سَبَّحَتْ باسم الخالق القهار. ومتى تصير طنجة مدينة الورع ومدينة الصيام ومدينة الاستماع إلى صوت الله؟ لابدمن الجهاد. الجهاد شرف وواجب. الجهاد في الكفار يعيد ديننا إلى أصله ونقاوته ويُطَهِّرُ طنجة من المارقين والقتلة واللصوص.

إذا قتلتموه فاقتلوني. الفقيه ليس بكاذب وما قاله هو الحق. ابن الزاوية لا يكذب. فوق سطح دار الفقيه سوف أنضد نبالي وأشحذ سكيني. ولن أخرج من دار الهجرة حتى يتبين الحق من الباطل.

ذاك هو عمي ميمون أيها الصاحب، اهتاجت طنجة وأصابه هيجانها وما عليها إلا أن تستسلم. هل تستسلم طنجة للنبال المسقية بالسم والخناجر والسلاح الأبيض؟ كيف تقاوم؟ أية روح من أرواح طنجة تلك التي ستقاوم؟ قل أيها الصاحب، فأنت العارف بأرواح هذه المدينة.

الصاحب يصبح قنفذا
يباع في فندق الشجرة

أسمع الصاحب ولا أراه. كان قد أخمد نار الموقد وترك الفسحة للاخضرار كي يندلع هابطا من المدفأة صاعدا نحو السقف يتسلق جانبا من الجدار.

اخضرار زاه، تائه في مكانه ينتشي باللحظة وهو يَسْمَقُ سُمُوقَهُ المشتهى، نرجسي تَوَّاقٌ إلى الضوء، ينمو في اتجاهه، وهو يكلم بعضه ويسمع السوناتا. كأنه الحرير أو شبكة العنكبوت، المخمل أو الزبرجد، وهشاشته هي البهاء.

قال لي اِبق هنا مع موزار، وضحك ضحكه الذي يختزل كلاما سرياليا يقوله من حين لآخر لنفسه. أما أنا فسأرحل إلى الجبل قال. جبل غير جبل طنجة، ولعله جبل العلم حيث ضريح الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش. قال سأرعى القنافذ في جبل الحبيب، بعيدا عن الجبل الكبير في طنجة، حيث الفيلات والمسابح وقوارير الشامبانيا التي لا تفتأ تُفْتَرَعُ من حين لآخر في الأبهاء والصالات.

القنافذ لي ولك أيها الصاحب. بأشواكنا نحتمي ساعة يحيق الخطر. ولعلنا قد صرنا قنافذ في هذا الزمن الذي فاجأنا ولم نكن نتوقعه رذيلا إلى هذا الحد. الصاحب صار قنفذا أيها الصاحب. اضحك. إذا أردت أن ترعى القنافذ معي في جبل الحبيب فسآخذك معي في سفر قادم إلى هناك، أما الآن فابق هنا مع السوناتا، ولا تنس أن الصاحب قد صار قنفذا، وإذا ما رأيت قنفذا يباع في فندق الشجرة فَكَلِّمْهُ ونَادِهِ الصاحب، فربما أكون أنا هو ذلك القنفذ، وسأرد عليك.

القنافذ تعرف بعضها. أنت تعرفني وأنا أعرفك. لستَ أملس وأنا لستُ

كذلك أيها الصاحب.

بعد أن انسحب بقيت مع هذا الضحك. الآثار هي التي قادتني، وَشْمُ الأشياء وذاكراتها، العلامات الخفية والأسرار التي تُدرَك في لحظة من لحظات تَيَقُّظِ العقل. ولكل شيء أثر. صنبور الماء فتحته أيدي رجال ونساء وتسمعت قطراته آذان نساء ورجال ربما كان من بينهم ذلك الكهل الإنجليزي الذي جاء إلى الشقة بسترته الفضية وياقته المقلوبة وصندوقه الذي ناء الحمالان بثقله، أو ذلك البحار الإسباني الذي كان اسمه أدولفو، أو الصنهاجي الذي كان يتداول الحشيش بواسطة الرسائل، أو نيزي، الذي وعدوه بأن يرى الملائكة في طنجة، أو الآخرين، والشرفة أطلت منها عيون وعيون، والشموع أضاءت، والأغراس اخضرت، وروائح الطعام والثوم والخل والبقل، والورد والمنامات، وعبق القهوة وبقايا الخمر في قيعان القوارير.

أي شيء. كل شيء. وراء الأثر أثر يَقْتَفِيهِ ويُخْفِيهِ ووراء الحكاية حكاية ووراء الذؤابة اشتعال كما وراء الثرثرة والنشيج والعري والظلال حكايات الأيام.

حين ذهبت إلى المطبخ أخذت أتأمل الشوكات والملاعق والصحون المختلفة الأشكال والألوان والأحجام. رأيت بعض الفناجين وعلب المربى الأجنبية الصنع وقد أصبحت مليئة بالتوابل. أوراق موساليابسة تطل من إحدى القوارير ولعلها تخشخش. الثوم والبصل اليابس. الكؤوس والأكواب مقلوبة على منديل أبيض مفروش على الرف، بجوارها يسمق اخضرار النبات.

هذه هي كأس ساميا، وفي نفس المكان من حافة هذه الكأس كان قد شرب ذلك البحار البدين الموشوم الذراعين، ولعل رجل المخابرات قد شرب هو الآخر منها، ورجال ونساء لا يحصى عددهم، وها هي حواف الشفاه

ترشف الشراب أو القهوة من كأس أو فنجان، والثرثرة والضحكات والخصام وكلمات الغزل والمناغاة والأسرار العسكرية والشبق والدموع والأغاني، والشفاه تتزاحم على حواف الكؤوس والفناجين وترشف منها الشراب. شفاه غليظة وأخرى رقيقة، وشفاه طليت بالأحمر أو بالذهبي أو الفضي أو ألوان أخرى لطلاء الشفاه. شفاه مُقَوَّسَةٌ وأخرى ممطوطة وشفاه تتلمظ وأخرى يمر عليها طرف اللسان.

يأتون إلى الغرفة من أزمنة متباينة وبأزياء مختلفة، ولكل رجل نوع من أنواع السجائر، ولكل امرأة نوع من أنواع العطور، لكن موضات الأربعينات هي الغالبة على ملابس الرجال والنساء، ماعدا ساميا التي وقفت وسط هؤلاء بسروال البلودجينوكاسادورة زرقاء، تسريحة شعرها رجالية، ولقد بدا مظهرها غريبا وسط هذا الحشد الهائل من الرجال والنساء.

ظلوا يتزاحمون في الغرفة حتى صارت كأنها معرض للأزياء أو حفل كوكتيل، ثم غابت فجأة أجسادهم وملامحهم ولم تبق سوى شفاههم ترشف من حواف الكؤوس والفناجين.

ها أثر شفتي ساميا على حافة هذه الكأس. الصاحب كان قد شرب منها، وساميا شربت من كأس الصاحب التي كانت كأسا للبحار أو ضابط المخابرات. هل غيبهم الموت أم أخذتهم المحن؟ آثارهم باقية وها قد راحوا ولن يعودوا ثانية إلى هذا المكان.

هل أنا مسحور؟

هذه الغرفة سحرتني، فيها تعيش أرواح كل المدن جاءت إلى طنجة وكأنها روح الأرواح، أرواح قارات وعوالم، رجال ونساء، والأرواح تتجمهر في الغرفة

والخيل نافرة على الجدار.

عرفت أن الغرفة برزخ آخر، تسبح فيه روح أخرى لهذه المدينة، إن لم تكن الغرفة هي مجمع الأرواح، فقد كان الصاحب قد حدثني عن مقهى الحافة وقال أنها برزخ من البرازخ السبعة التي تسبح فيها أرواح طنجة السبع. وإذا ما نهضت كل هذه الأرواح وعادت لترشف القهوة من الفنجان أو تسمع سوناتا موزارت، أو تأكل القمرون بطريقة التحضير التي نسميها "بِيلْ بِيّلْ"، أو تضحك أو تثرثر أو تتخاصم أو يصيبك الأرق، أو تنشر عاهاتها وأمزجتها في المكان، فماذا عليَّ أن أفعل؟

هل أتفرج على تلك الأرواح أم أنني سوف أغدو روحا من أرواح هذه الغرفة؟ من أنا؟

الصاحب؟

صاحب الصاحب؟

الجسد وظله؟

الشيء وأشياؤه الأخرى؟

الرماد؟

لعلي أنا الرماد ورماد كل هذا الرماد.

روح الرماد أو رماد ماريا بوابة العمارة.

روح تماثيل والمنحوتات.

روح الشموع التي احترق بعض منها وبقي البعض الآخر.

روح الملائكة والشياطين.

روح ساميا.

روح الصحن المستدير الذي على حافته تواش زرقاء وثلمة على الجانب ونقوش ذهبية في الوسط على شكل أسماك صغيرة.

روح الكتب أو روح عازف البيانو.

أنا روح الرماد، أما طنجة فهي روحي أنا وروح الصاحب، ولهذا فهو شقيق الروح.

هل يطول بقائي؟ متى يعود الصاحب من حجه إلى جبل العلم؟ ربما تأتي ساميا وتجدني هنا وحيدا، إذا لم تكن قد سافرت إلى إسبانيا أو فرنسا، أو إذا لم تكن قد رافقت الصاحب في حجه إلى جبل العلم. لكن عازف البيانو قد توقف في هذه اللحظة وبدأت أسمع تصفيقا حارا لرجال أنيقين جلسوا باحترام يستمعون إلى العزف وأصواتهم مكتومة وهم كالمأخوذين يتابعون شلال الأصوات المتدفقة من بين أنامل عازف البيانو وهو يحرك خصلة شعره المائلة على الجبين.

لم أعرف لمن كان يصفق الرجال المؤنقون والنساء ذوات القبعات الحريرية اللواتي يضعن في أيديهن قفازات حريرية سوداء، هل لِنهاية السوناتا أم لدخول ساميا؟ لابد أنها تدخل الغرفة الآن، في هذا الاحتفال الباذخ، وعلي أن أنهض واقفا وأنحني لها قليلا ثم أقبل يدها التي تكون قد مدتها نحوي. أُجلسها بجوار المكان الذي أجلس فيه ثم أحضر لها كأسا من الشامبانيا وأجلس بجوارها وقد وضعت رِجْلاً على رِجْلٍ وأشعلت سيجارتها الطويلة.

أليس هذا مضحكا؟ إما أن تغضب ساميا وتصفعني أو أن تضحك حتى تستلقي على قفاها فوق الفراش الذي ينام عليه الصاحب وقلبها يكاد يتوقف

عن النبض كما أشارت إليَّ بحركات من يدها، وأنا أحار هل أضع يدي على مكان الصفعة التي وجهتها إلي أم أهدئها حتى تتوقف عن الضحك الذي خشيت أن يتوقف معه قلبها. العينان متوحشتان والزبيبة ناتئة على جانب الذقن الأيسر. تسريحة الشعر رجالية وقد ارتدت الكاسادورة الزرقاء وسروال البلودجين، وحينما ضحكت خفضت بصري ثم رفعته نحو عينيها أقرأ ما فيهما من نظرات وتعابير، ثم سألتني سؤالها الذي لم أجد له أي جواب:

. ماذا تتوقع أن يفعل الصاحب في الجبل؟

قلت لها:

. لا أعرف.

قالت وهي تجول في أثاث الغرفة ومزيناتها بعينيها:

. هل تظنه سَيُقْلِعُ عن التدخين أم سيعود وقد ابتلى بتدخين الكيف؟

. الكيف؟ ألا تعرفين أنه كان يدخنه وهو هنا من حين لآخر؟

– أعرف، ولكن أقصد أن يصبح مدمنا على الكيف. يشتري له سَبْسِي طويل و"اشْقْفْ" و"مَطْوِي".

فتحت حقيبة اليد وأخرجت منها علبة "كَانْتْ" وأشعلت سيجارة. سألتها:

. تريدين قهوة؟

قالت:

. لا أريد أن أتعبك.

. تحضير القهوة يريحني، إذ أكون أنا أول من يَشُمُّ العبير.

. ورائحة الكيف؟

. الكيف؟ دخنته خلال فترة وانقطعت عنه. كان ذلك خلال صيف زارني فيه أصدقاء من فاس.

. والسجائر المحشوة؟

.كنت أفضل السَّبْسِي.

كان الصاحب قد قال لي:

إذا جاءت ساميا في غيابي فلا تظهر بمظهر الخجول أمامها. لا ينبغي أن يَحْمَرَّ خداك أو تخفض بصرك، فهي جريئة وتسمي الأشياء بمسمياتها، تشرب الويسكي والنبيذ وتجادل في السياسة واندفاعها نحو انتقاد الأوضاع لا يجعلها تهادن أحدا، حتى أنها في بعض الأحيان تقلب الصراع من أطرافه الحقيقية إلى أن تجعل من محدثها طرفا في الصراع وهي طرفه الآخر، إذا ما تبدت لها مرونة في حديثه أو تصالح مع الأوضاع، فمن المحتمل أن ترميه بالانتهازية، مدافعة عن نفسها بأنها لا تشتم ولا تتهم، ولكن الانتهازي بكل بساطة هو من له مصلحة في بقاء هذا الواقع كما هو.

حذار أن تستفزها أو أن تدفعها لأن تفقد لباقة الحديث، فهي لا تؤمن بالمجاملات، وتطرح المجاملة نفسها للنقاش عندما تباغت بالسؤال:

. ما الفرق بين المجاملة والنفاق الاجتماعي؟ وما الفرق بينها وبين تنازل الإنسان عن خصوصيته وأفكاره ومواقفه؟

ستراها تغضب أمامك ثم تستعيد ضحكتها حتى يصبح بإمكانك أن ترى أسنانها الناصعة وهي تميل ذقنها لتبدو الزبيبة أكثر نتوءا وهي تتدلى كحلمة ثدي نافرة. حتى إذا لم تضاحكها فهي تستمر في الضحك، وربما تقف أمامك فجأة وتفتح فخذيها بتلقائية لتطل عليهما وتسوي بأناملها اللفافة التي بينهما

من غير أن تتحرج من وجودك أمامها.

تعرف أيها الصاحب؟ مرة ألحت علي في أن تذهب إلى عمي ميمون وتتظاهر بأنها جاءت لتشرب كأس لبن، ثم تستدرجه للحوار الصعب الذي كانت قد بَيَّتَتْ له. طلبت مني أن أرافقها إلى حانوت عمي ميمون، فقلت لها لا فائدة من هذا الحوار، وقالت تريد أن تقنعه بألا يخلط بين أمور الدين وأمور الدولة، ومدخلها لذلك الإقناع أن المؤمن لا يحقد، والإسلام دين السماحة، فلا حاجة لأن يجعل الرجل من نفسه مجاهدا وكأنه ينشر الدين من جديد، أو كأنه وحده من يتدين بالإسلام فوق هذه الأرض. وقالت إن وراء محنة عمي ميمون تنظيم سري يستخدم التطرف الديني كتغطية على نشاطه السياسي، ويستقطب الناس الطيبين والبسطاء. لكن هل تعرف ما وقع لها مع عمي ميمون؟ الرجل لم يرد على كلامها. صَمَّ أذنيه عن كلامها وانشغل عنها بتقديم الطلبات للزبائن، فأُسقط في يدها ولم تعرف كيف تقتحم الحديث معه، حتى رجعت من غير أن تقول له ما أرادت.

درست الديكور في مدريد وهي تشتغل الآن في مقاولة للبناء. غير متزوجة في السابق ولا ترفض الزواج حتى وإن كانت تعتبره خسارة ليست أقل أو أكثر من خسارات العزوبة، وفي كلا الحالتين لن يخسر الإنسان أكثر مما هو خاسر. إيه! بماذا يمكن أن ترد عليها أيها الصاحب لو قالت لك هذا؟ أما أنا فقد ذكرتها بأن الزواج كالإسهال الحاد يفاجئ الإنسان في وقت من الأوقات فلا يستطيع أن يتخلص منه، حتى يجد نفسه مطوقا بالألفة والواجبات اليومية وأوهام مشاريع جديدة يتعلم الإنسان منها مقاومة الإحباط ولا يصل إلى تحقيقها أو تحقيق بعضها إلا وهو على حافة القبر. أليس كذلك أيها الصاحب؟

ليست دمعة هذه المرأة، هي الماء في تَرَقْرُقِهِ نحو أرض عطشى، ولا أحد

يفكر مع ساميا في الهبوط إلى قيعان نفسه، فصخبها وأحاديثها المشاغبة وفوران أعصابها كلها تدفع إلى تأجيل كل رغبة في الاسترخاء أو التأمل إلى حين ذهابها حيث يمكن أن أبقى وحيدا، وهي لم تستقبلني مرة واحدة في شقتها، تقول أن ذلك سوف يغير من نظرة الجيران لها، وسينشر حولها بعض الإشاعات أو سيدفع الرجال إلى استسهال العلاقة معها، كما أنها لا تخاف من كل ذلك ولكنها لا ترغب في أن تمنح الجرأة لبعض السخفاء كي يقتحموا عليها حياتها، ومع كل هذا فهي تعيش بالطريقة التي تحلو لها، تسافر وتشرب وتأكل في المطاعم وترافق أصدقاءها في الأماكن العمومية، تحلم بتغيير نسيج العلاقة الاجتماعية، وتفكر في تغيير عملها بأن تنتقل إلى مجال الإعلام، لكنها ترفض أن تشتغل داخل مؤسسة إعلامية تمويلها غير واضح وأهدافها غير واضحة.

دعوتها أول مرة إلى حديقة فندق الجنينة، وفي تلك الجلسة الهادئة، وطيور الحديقة تزقزق، اكتشفت أنني أمام شابة استثنائية، واستمعت إليها وهي تحدثني عن كاتب التقت به في طنجة بعد أن جاء من الدار البيضاء، وقالت إنه يسافر إلى الشرق وأروبا ليشارك في الندوات والمؤتمرات ويلتقي بالكتاب، وقد صدرت له عدة كتب في مجال علم الاجتماع، وهو بصدد كتابة رواية تدور أحداثها في طنجة.

سَأَلْتُهُ لماذا طنجة بالذات؟ فقال لي إنها مدينة الانفتاح على كل رياح العالم. مدينة لها تاريخ، وتاريخها إضافة إلى جانبه المشترك مع بعض المدن الأصيلة في المغرب، فإنه يتميز بالطابع الخاص الذي اكتسبته طنجة من كونها كانت مدينة دولية، وكانت مركزا لتجمع رؤوس الأموال ورجال المخابرات ومنفذا لانفتاح المغرب على العالم الخارجي، إن لم نقل منفذا لانفتاح الغرب على نفسه في منطقة محايدة يمكن أن تسمح بتكوين ملفات عن أسرار بعض الدول

العسكرية وعن الحرب الباردة ينجزها جواسيس كل دولة عن الدول الأخرى، وطنجة هي المكان الذي كان مناسبا لنشاطات الجاسوسية العالمية. ومع أن هذا السبب غير كاف لتبرير اختيار طنجة كمدينة أكتب عنها رواية، فهناك سحر المكان وجاذبيته وقدرته على الإيحاء واحتضان التجربة التي هي تجربة الكتابة قبل أن تكون تجربة عيش، فالناس يحيون في كل مكان، والتجارب التي يعيشها الإنسان لاحصر لها، إلا أن بعض التجارب وبعض الأماكن تسعف الكاتب في خلق اللغة ونسج الأخيلة وبناء العوالم. هل فهمت أنني بصدد كتابة رواية بوليسية؟ لعلها كذلك، ولكنها قد استفادت من وثائق الجاسوسية كما حفرت في المتخيل الشعبي وأنماط الحياة الاجتماعية والتبدلات التي عرفتها طنجة كمدينة لها خصوصيتها التاريخية.

ذهبنا إلى (فِيلاَ دُو فْرَانْسْ) وشربنا كأسين هناك. كانت نظراته أسيانة، وبدا شاردا، لكني اقتحمته وبَدَأْتُ معه لعبة الأسئلة حتى أَسْتَكْنِهَ وعيه بالمجتمع والتاريخ والمرأة والسينما وأشياء كثيرة. حافظ على رصانته ولم تستفزه أسئلتي المتلاحقة التي حاصرته بها وهو ينتقل من فكرة لأخرى. كان يبتسم لي ويتفحصني بعينيه، وأنا أنظر إلى عينيه نظرة استجلاء للأفكار والمعاني. هل أطلت في الحديث عن هذا الكاتب؟ اللعبة نفسها لابد أن نمارسها أنا وإياك. انتظر. بعد حين سوف أسترجع أنفاسي وتبدأ أسئلتي. أرجو ألا يضيق صدرك بي. ما أعز الأصدقاء في هذا الزمان، وأنا لا يمكن أن أصادق إنسانا يحمل أفكارا متخلفة أو وعيا مغلوطا. لابد أن نتحاور بعمق قبل أن نصبح صديقين، وحتى وإن كنت قد كشفت لك ما أفكر فيه فإن ذلك لن يؤثر على النتائج في شيء. ضحكتُ وقلتُ لها:

ـ هل أنا أتعرض للامتحان؟

ردت بحسم:

ـ ليس امتحانا ولكنه الرغبة في معرفة موقع الإنسان الذي يجالسني. وأنت أيضا لك الحق في معرفة من تجالسها. هل أنت تجالس كل النساء؟

قلت لها ضاحكا:

ـ لست دون جوان.

ـ الغرائز تقود بعض السخفاء من الرجال نحو أية امرأة.

ـ إذا استثنينا دوافع الغريزة، فذلك الصنف من النساء، الذي يمكن أن نحكم عليه أحكاما قاسية، ربما كان قد عاش تجربة ومعاناة.

ـ ومن منا لم يعش ولم يعان؟

ـ لكن المعاناة تختلف، ونحن نتعلم مما نعانيه ومما يعانيه الآخرون.

وكما قلت لك أيها الصاحب، فساميا من نوع المثقفين الذين لا يكبحون جموحهم إلا بعد بدأ بالهجوم، فالحوار حرب، والصراع كما يتصورونه هو صراع يجب أن يظل حاضرا حتى بين من ينتمون إلى وعي مشترك. هذه هي ساميا أيها الصاحب، وإذا ما جاءت في غيابي فلا تظهر بمظهر الخجول أمامها، وإياك أن يحمر خداك أو تخفض بصرك. قَدِّمْ لها كأسا من النبيذ فربما سوف تفضلها على فنجان القهوة، وحينما أعود سوف تخبرني بكل شيء.

ها قد جاءت ساميا أيها الصاحب، ولكنها قد جاءت عبر آثار شفتها التي رشفت من الكأس، وهي لم تأت وحيدة، وإنما جاءت مرفقة بهذا الحشد الهائل من الرجال والنساء، بحارة وجواسيس ومدللون وغانيات من كل الأجناس والحقب. كأس أو كوب أو فنجان. شوكة أو ملعقة أو صحن. لابد للشفاه من أن تترك بعض الآثار، والأثر فوق الأثر فوق الأثر، فلابد أيضا أن تقترب شفة

من نفس المكان على الحافة، الذي سبق أن اقتربت منه شفة أخرى. وأنا مالي أيها الصاحب؟ كل ما في الأمر، هو أن ساميا إذا جاءت، فستأتي محفوفة بحشد من الرجال والنساء، أنا لا أعرف كيف سوف تتسع الغرفة على ضيقها لكل هذا الحشد. أما القنفذ فإذا ما لَقِيتُهُ يباع في فندق الشجرة، وكَلَّمَنِي وعَرَفْتُه، فَسأَرُدُّ عليه بلغة القنافذ، وهي لغة تعلمتها في هذا المكان.

غابت الدولارات

صار كل شيء أدهم، ذا رائحة

أنت تكذب أيها الصاحب. قلت لي سوف تذهب إلى الجبل ولكن ها أنت في حانة (الجرح في الحائط) تقضي لياليك ونهاراتك فلا تعرف من أين أتيت إلى الحانة ولا إلى أين سوف تذهب منها.أَغْشَتْ عينيك غشاوة الخُمار والنوم القليل فلم تعد تسترجع وضوح الرؤية إلا وأنت تحتسي كأسا بعد أخرى.

لماذا كذبت عليَّ أيها الصاحب؟

تَغَرَّبْتَ في طنجة التي تَغَرَّبَتْ وغَرَّبَتْكَ معها. خرجت من الشقة وقد أثقلت كتفيك أحزان الماضي ولم تعرف إلى أين ستذهب حتى سقطت في فخ "الجرح في الحائط" وأصبحت نديما للشقروف، كما يدعوه زبائن الحانة من غير أن يسمع، السي التمسماني كما ينادونه وهم يُظهرون له بعض الحركات التي يعبرون بها عن تزلف مبالغ فيه ويتضاحكون ليتحول التَّزَلُّفُ إلى سخرية. أنت نديم من ندامااه! لعلك لا تعترف بذلك ولكن الشقروف يبدو سعيدا بوجود أحد المثقفين في الحانة، وهو يداعبك من حين لآخر ليخرجك من صمتك عندما يقول لك:

ـ سَعْدَاتْ اللِّي قَرَّاكْ.

كما أنه يتبرع عليك بين حين وآخر بكأس مَادُمْتَ قد رفضت أن تصبح من أفراد جماعته فلجأت إلى ركنك القصي هناك، ولم تُمَكِّنْهُ من أن يدفع ثمن شرابك بصفة دائمة كما يفعل مع أفراد تلكالجماعة. الشقروف يعتبرك من ندمائه، فهو بين حين وآخر يطلب منك أن تقرأ شعرا، أو أن تشرح له الفرق بين الشيعة والخوارج، أو بين الاشتراكية والرأسمالية، فكنت تقدم له الشروح، وكان يبدو سعيدا، فيقول لأفراد جماعته:

. أيها الحمير، انتبهوا إلى ما يقوله الأستاذ.

ثم حينما يُفتح باب الحانة، ويدخل رجلان يحملان خروفا مشويا، ويضعانه على المائدة، فالشقروف يدعوك للتناول معه ومع الحمير، وأنت تتناول. تسمعه يقول لهم:

. الأستاذيتعفف في الطعام، ويتناوله بشكل متحضر، أما أنتم فتأكلون اللحم مثل كلاب هيجها اللحم.

لا يغضبون منه.وقد كان عليك أيها الصاحب أن تدرك أن الشقروف لا يعطي إلا لكي يأخذ، فهو يعبث بالمال الكثير، ويحب الرفقة في الحانة، لكنه يحسب حسابه، وإن فرح بأحد في الحانة، من غير جماعته، فهو ينوي على شيء. أقول لك هذا الكلام لكونك قد أصبحت تقيم في حانة (الجرح في الحائط)،والشقروف أمامك يعيد نفس الكلام الذي يقوله كل يوم وأنت لا تسمع. تستمع إلى كلامك الداخلي وإلى هدير أمواجك وطقطقات الحرائق وهي تسري في خلايا الجسد وأعصابه كما تسري في روحك. وها هو الشقروف يتحدث عن هذه الأيام التي قد غابت الدولارات، ويقول ها هي الدراهم في الجيب، والزهو هو الزهو والأشياء نفسها حتى وإن غابت الدولارات وحضرت الدراهم.، ثم تراه يغضب ويقول إن الدراهم صارت تتبدد بسرعة وكأنها في كف عفريت، وهي لم تعد قريبة من قلبي.

لم أعد تشرب الخمر بعد أن ضيعت عمري في التيهان وراءها من طنجة إلى طنجة، ومن حانة إلى حانة، فأنا لا أعرف من طنجة سوى حاناتها، كما كنت لا أعرف منها سوى مواخيرها. طنجة لم تعد في حاجة إلى أمثالك، كما لم يعد الناس في حاجة إلى حماية الإنجليز بحيازة جنسيتهم. هل كنت أظن أنهم كانوا سيعطونني الجنسية الإيطالية أو النمساوية أو الإنجليزية؟ من أنا؟ تاجر أخشاب أستوردها من الخارج، ومضارب في البورصة، وعيني على ارتفاع أسعار العملات

وسعر الذهب. لكني جميل وأحب الجمال، ومع ذلك فكأني أعيش تحت الأرض في ظلماء لا قرار لها تنيرها أضواء عيون غامضة لكنها تغريني وتسبيني.

حينما نزلت أنا عن الكرسي العالي وذهبت إلى المرحاض سمعت النادليسميني الشقروف. تذكرت الأيام التي كان يناديني فيها "الزين". وكان الجميع يناديني الزين، حتى حتى الإيطاليات والنمساويات كن ينطقن اسمي هكذا: زَيْنْ. كنت وجيها، والدولار بين يدي، والقامة الفارعة والكتفان العريضتان. البَّالُومِيطَةوالطُّراخِيالأنجليزي بأزراره المصفوفة. تفصيل من طراز الكروازي. الجلباب الرمادي من الصوف الأسترالي فوق الطُّراخِي والطربوش الأحمر، وكنت إذا نزعت الجلباب لكي أرقص يظهر الطُّراخِي بأناقته والحذاء لامع والوقفة منتصبة. لم أكن أجلس على كرسيك العالي هذا. كنت أجلس على مقعد كبير هناك، والمائدة أمامي. الخواتم الكبيرة لامعة في الأصابع وساعة كاوني الذهبية في المعصم. تتذكر؟ المقعد تَزَيَّتَ وتَبَهْدَلَ وأنتم لم تغيروه بآخر جديد. تأخذون ولاتدفعون. تلك الساعة كان بإمكاني أن أهديها لك أيها النادل الحقير لولا أنك قد أغظتني حينما سمعتك تسميني الشقروف. وقتها لم أكن شقروفا. والآن أنا لست بالشقروف. شبابي دائم. موتوا من الغيظ. الصور ما تزال ويمكن أن أخرجها من المحفظة وأريكم إياها. سترون الزَّيْنْ وتعرفونه. ساعتها سوف تتذكر. الزَّيْنْ باع واشترى وكان يدخل المرسى ويراقب السلع ويخرج ثم يأتي إليك بالدولارات وهي قريبة من القلب، هنا، في الجيب العلوي الأيسر. وطنجة كانت، أما اليوم فقد تبدل كل شيء، حتى ودراهمي في الجيب ووجهي على المرآة أراه أمامي كما كان، وعيناي في عيون النسوان وفي عينيك أيها الكاماريرو الحقير، وأنت تقابلني في المرآة. كأسي ما تزال هي نفس الكأس، ورغم أن بعض الوجوه قد غابت عن المكان فالذكريات ما تزال. اليوم أتاجر بالأخشاب والسيارات المستعملة. اسمع. يقولون من لا يعرف كيف يدور مع الزمان دار عليه الزمان. هل يسمون أيها

الخنزير الكَراج الذي أحفظ فيه الشاحنات والسيارات كَراج الشقروف؟ أنت حمار. سأذيقك من بولي ذات يوم. هاك الكارت فزيت واقرأ. لا تقل لي أنا لا أقرأ. لست مُحمَّدا النبي الأمي. خض في عالم جنياتك اللواتي لا يراهن أحد سواك واتركنا نعيش الساعة.

ألم يتبدل كل شيء؟ ذهبت جينا الإيطالية وجاءت في مكانها الحسناوية. جينا كانت رقيقة الطبع. دمها عربي. لونها قمحي وعيناها واسعتان والشعر فاحم. كانت تضحك من طربوشي الأحمر، أما الحسناوية فهي غليظة الحنكين، جسدها منضغط، ولها أكبر مؤخرة في العالم. أنت المسؤول عما وقع البارحة. وأنا لا شأن لي. جئت لكي أشرب كأسي كالعادة وليس في نيتي أن يحدث شيء، فقد تركت الأمور لتدبيرك، وقلت ربما يحضر بعض الأصدقاء من تطوان، أبناء جيلنا الذين عاشوا معنا في طنجة ما عِشناه وزهوا بالمدينة وباعوا واشتروا حتى جاء الاستقلال وأعادوا الحساب وبَدَّلُوا التجارة. لا بد أن يدور الإنسان مع الزمان لكي يعيش. الشاوني كان يلهث وراءنا ككلب، واليوم صار يملك المرسيديس والفيلا في كابونيكَرو. يقولون يبني العمارات بالمسوس. وماله؟ يبيعها ويرتاح. يبيع الشقق للموظفين ويحل مشكلة السكن، واليوم كل كنز عليه عفريت. من أين للموظف أن يكسب شقة؟ إذا وجدها ولو بأقساط تمتد طول عمره فهو المبروك المسعود. ابنتي زَوَّجْتُهَا قبل عامين وأهديتها شقة وسيارة. زوجها كان يقول مع القائلين: (الله يجيب اللي يزوجنا ويشوف الرجال آش تتدير). وأنا سترت عرض ابنتي. زوجتها له دجاجة بكامونها. أما الشاوني فكان يقول لي لن يتصاهر إلا مع مهندس معماري متخصص في التصاميم أو في الإسمنت المسلح حتى يستفيد من مصاهرته ويفيد. الشاوني طماع، كرشه كبيرة وعينه لا تشبع وقلبه لا يقنع. يستهويه طبق الشنكَيطي. قلنا له أنت تأكل

أطنانا من السمك في هذا الطبق، فلو تركوا هذه الأسماك الصغيرة الحديثة التفقيس تكبر لامتلأ البحر بها، ولكنهم يُبِيدُونَ ثرواتنا السمكية. يصطادونه بشباك بلاستيكية ضيقة العيون. وأنا مالي يقول الشاوني (لست وزير الصيد البحري). ونحن نضاحكه ونقول له: (لو أصبحت وزير الصيد البحري لشربت البحر كله فلا يعود لك ما تكون عليه وزيرا.)كنا نقول له إذا رأيناه يغازل واحدة من البنات: (عليك بالشنكَيطي، فهو يُقَوِّي الهمة).

البارحة، أنت حَكَكْتَ السبابة مع الإبهام قريبا من عيني وأنا فهمت. ولكن كيف انتشر الخبر ووصل إلى أصيلة وتطوان والعرائش؟ وضعت أمامنا صحون اللحم المشوي والسمك والسلاطة وأخذتم تأكلون وأنا أشرب. قلت لكم لا شهية لي للطعام. تسابقوا على قطع اللحم وقلتَ لهم الخير كثير وستأكلون حتى تصابوا بالتخمة، فلم يسمعوا كلامك وظلوا ينهشون اللحم كالكلاب.ساعتها وأنتم تأكلون داهمت النسوان الحانة. جاءت اثنتان وجلستا عند الزاوية ترمقاننا بنظرات خجولة. الشعر مقصوص والعيون كحيلة. لم تنفضوا أيديكم من الطعام حتى جاءت اثنتان أخريان، وثلاثة، واثنتان. صرن تسعا وقد أخذن يتبادلن النظرات وكل واحدة منهن تتفحص وجوه الأخريات وثيابهن وهن لا يتبادلن الكلام.

اكتظت الحانة بالرجال والنساء، وعرفت أنها واحدة من خططك. عقلك المدبر خَطَّطَ لليلة بيضاء نُجَدِّدُ فيها ما أبلاه الخمول وقتلت فيه العادةُ روحَ المتعة والاستبشار وذلك الفرح الغامر الذي يدخل النفس ويبهجها بعدما اكتأبت وأظلمت. هل قلت لهم الشقروف سيدفع؟ هل قلت الشقروف؟ إذا كنت قد قلتها فسأندم على ما دفعت ولن أدفع المزيد. كيف جاءوا؟ وأي ليل أو نهار كنا فيه؟ جاءت العروسيات والفحصيات والجزنائيات واللانجريات. خرجن من الفحص

واكَزناية وخميس اللانجرة، من الأدغال والجبال وأحواض الملح وبيوت الصفيح موردات الخدود معطرات بعطرهن الرخيص، وأنا أعرف ما قلن للجارات والأزواج. لا بد من كذبة حتى وإن انفضحت. ربما يَكُنَّ قد قلن إنهن ذاهبات إلى عرس في طنجة، أو إلى زيارة سجين من الأقارب، أو لزيارة الطبيب. المرأة إذا لم تكذب لا يهدأ لها بال. وخير أن يقلن ذاهبات إلى عرس في طنجة من أن يقلن ذاهبات لزيارة سجين. العياذ بالله. هذا هو العرس. أيامي كلها أعراس، حتى وقد راحت أيام الدولار فأيامي كلها أعراس. الإنسان من ينكد حياته أو يفرجها ويجعلها كلها فرحاً وانشراحاً. لكن الدراهم ليست دراهمي. ليأخذها من شاء. أعطها للحسناوية وخذ منها ما تشتري به ثورا لحماتك اذبحه أمامها حتى تصالحك وتُبَيِّضَ قلب ابنتها بعد أن أصبح مليئا بالحقد عليك. ابدأ صلحك مع حماتك وسترى أن زوجتك هي التي سوف تأتي لمصالحتك. منذ كم من السنوات وأنت متزوج؟ عاداتك لا تتخلى عنها. أنت لا تتوب. حتى وإن انقطعت عن شرب الخمر فلا بد أنك ستعود. وفيم أفادك ذلك؟ حماتك كانت تقول سكير وتُشَنِّعُ بك أمام الجيران وحتى بعدما انقطعت عن شرب الخمر فهي ما تزال تُسَوِّدُ قلب ابنتها وتملأه بالحقد عليك. تُبْتَ أو لم تتب فحياتك في البيت جحيم. عد إلى خمرك وكأسك ولا تبال.

مؤامرة البارحة أنت من نظمها مع الحسناوية. اكتظ المكان بالراقصات والراقصين والشاربات والشاربين واختنق الهواء بدخان السجائر كما عَلَتْ أَصوات الثرثرة والصراخ وتداخل الأغاني. كل واحدة تغني أغنيتها التي تحبها لنفسها أو لصاحباتها أو لأحد الرجال وقد صاحبها. كن قد تآلفن بعد كأسين أو ثلاثة وتَوَحَّدَ الغناء وتوحدنا فيه. أنت أغلقت الباب بعد أن خلصتنا من بعض الدخلاء. سمعتك تقول لأحدهم المخزن معنا، افهم راسك، وحينما رأيته يدفع الحساب ويخرج بسرعة ضحكت من فكرة المخزن التي أرعبت الرجل. نَضَّدْتَ الدجاجات المُحَمَّرَة على

الموائد، وجئت باللينكَواضو، والسلاطات والفلافل المخللة وكل المُشَهِّيَات. استعجلت الطباخين وأنت تكلمهم من الفتحة المطلة على المطبخ وكأن القيامة ستقوم. تتبَّعتُ حركاتك وأنت تَصُفُّ الأطعمة والأشربة مزهوا بي وبنفسك. القوارير المذهبة أخرجتها من الرف وصففتها على المائدة وأنت تُلَوِّحُ بها في وجهي وكأنك تشعرني بالتكاليف التي سأدفع للمحل، وأنا فهمت حركاتك وهززت لك رأسي موافقا. لكني في قرارة نفسي عرفت أن هؤلاء النسوان اللواتي أتيت بهن لا يستحقن أن يدفع عليهن الإنسان سربيسا. سربيسا واحدة وخسارة. خيوط الذهب البراقة على الثياب الخضراء والصفراء ورائحة العطر الرخيص زكمت أنفي، وحينما قلت لك أرسلت من جاء بقارورة سْوَارْ دُو بَّارِي الباريسية وأخذت ترش على شعورهن وثيابهن وهن يرقصن. لا تريدني أن أكون متضايقا من شيء. أنت تعرفني منذ عام ١٩٤٧ حينما كان الوقت لا يزهو إلا لقليل من المغاربة، وتعرف منذ ذلك الوقت أنني كلما عبثت بالمال إلا وهو يكثر بين يدي وفي حساباتي البنكية. الذين يعِدون كثيرا لا يجدون في النهاية ما يعدون. ادفع المال يأتي مال آخر، هذه هي الحكمة. ها يدي. قل لي، هل هي خاوية أم عامرة؟ ها يداي. أيهما خاوية وأيهما عامرة؟ إذا اهتديت إلى العامرة فَخُذْ ما فيها. لكنك البارحة نظمت خطة من خططك القديمة التي لم أعد أرتاح لها. الأسنان الذهبية والعكر على الخدود والقفاطين التي نعرف أنهن قد أَعَرْنَهَا من الجارات ليأتين في أزهى الحلل. رائحة الزيت في الشعور. أهذا كل ما عندك؟ أ لهؤلاء يأتي أصدقاؤنا من تطوان وأصيلة والعرائش؟ العين لا تفرح بهؤلاء. قلت لك لا يَسْتَحِقْنَ أن يدفع الإنسان عليهن سربيسا. لا تفهم كلامي من قبيل البخل. ها هي الدراهم وها هو دفتر الشيكات وأنا أستطيع أن أوقظ مدير البنك من نومه وأخرجه من فراشه ليفتح البنك في أية ساعة من الليل ويعطيني ما أريد. التمسماني ليس بخيلا ولكن رائحة الأفواه والأسنان الذهبية وهذه الحركات الرعناء وهذا الصراخ كلها أشياء لا تفرحني.

قلت عروسيات وفحصيات وجزنائيات. أية حقول وأية جبال وأية أحواض ملح؟ أنا لم أصدق. كذبتَ عليَّ وقلت جئن من نواحي طنجة حتى أدفع أكثر. أنت تبتزني أيها الحمار وأنا لست مغفلا، فقد عرفت أنهن قد جئن من (عين قطيوط) أو من (السواني) أو (الدرادب). حين أضبط عليك كذبا كهذا تقول لا بد من قليل من الكذب الذي يُمَلِّحُ الأشياء ويجعل من المألوف شيئا غير عادي. لو قلت لك جئن من الحانات القريبة من (الجرح في الحائط) لما كان في الأمر عجب، ولقد قلت لي حاولت أن أغريك بهن فجعلتهن يأتين من الفحص ومن بني عروس، وهذا كل ما في الأمر.

قلت لك يجب أن ينصرفن، وباركا من صداع الراس. فراشي لن يتسع لأكثر من جسدي. أيهن كانت هنا في الأربعينات أو الخمسينات؟ أيهن علقت معنا صور محمد الخامس على أبواب المتاجر؟ أيهن امرأة الأحلام، تلك التي جاءتني في المنام وأنا شاب غرير، وأنا غريب، وأنا وحيد وخائف، أبكي بكائي الصامت وأنا أدفن وجهي في حائط المرحاض في بار شعبي وأطلب أنامل رقيقة تمسح دموعي وصدرا حنونا يسندني قبل أن أسقط؟ أيهن وقفت بجانبي وأنا أشق طريقي وسط الإسبانوالإنجليز والطليان وأغامر بمالي وحياتي في تجارة تشبه الرهان على الحياة أو الموت؟ أيهن امرأة المنام؟ خذوا الدراهم وأعطوني امرأة المنام. لتذهب كل هؤلاء النساء ومن معهن ولتأت امرأة واحدة هي التي مسحت دموعي في الأحلام. خذ. هاك الدراهم. أنا ذاهب.

كل هذا وأنت وحيد أيها الصاحب، تستمع إلى أمواج بحرك وهي تهدر، والشقروف هو الشقروف، وأنت تقول إنك لست من ندمائه، فأي نديم لك أيها الصاحب؟ أي نديم؟

مزرعة الرب

السكين أو السيف أو النبل المَسْقِيُّ بالسم؟

أيها الصاحب؟ لو رآك عمي ميمون في حانة (الجرح في الحائط) لاختار أن يبدأ من صدرك العاري حتى يطهر النفس من آثام طنجة. أنت أو الشقروف سواء لدى عمي ميمون. سَيُكَبِّرُ ويرمي بالنبل من القوس أو سيطعن بالسيف أو الخنجر. لن يتردد كثيرا ولن تخطئك الطعنة. ولعله سوف يحرق الحانة وأنتم داخلها. النار طهارة. ثآليل طنجة لن تُداوى إلا بالحرق. أنت ثُؤْلُولٌ على راحة هذه المدينة، والشقروف وأصحابه ونساء الحانة كلهم ثآليل. من النار لن يخرج صوت عبد الصادق شقارة، ولن تكون النار بردا وسلاما على أحد. النار ستحرق الجرائد والتلفزيون والمقاهي والحانات والبنوك وكل أصحاب الكاسادورات. أنا أسألك أيها الفقيه هل السكين أم السيف أم النبل؟ قل أيها الفقيه ألا يكون الحرق بالنار أحسن؟ أنا أنتظر أن تقول، ثم إنني قد هجرت البيت والزوجة والبنات وأغلقت حانوتي وها أنا في الطريق إلى دارك. السكين أم السيف أم النبال المسقية بالسم؟ قل أيها الفقيه ولا تتردد حتى نبدأ. النبال نَضَّدْنَاهَا على السطح، وضعناها في المكان الذي يَصْطَفُّ فيه الرجال صفوفا صفوفا. صَفٌّ على هذا السور المطل على الطريق وصَفٌّ على ذاك الذي هو أيضا يطل على الطريق. قلتَ لنا تحصنوا بالأسوار وشدوا انتباهكم إلى الخلف وحصنوا خلفية الرجال الواقفين أمام الأسوار، فربما يفاجئوننا من فوق السطوح. نتوقعهم أن يأتوا في البداية من الطريقين، ولن يتمكن أي واحد منهم من بلوغ باب الدار وقد حاولوا أن يفترعوا الباب ويقتحموا الدار علينا. كل من اقترب من رأس الطريق سوف يسقط. ستكون النبل قد اخترقت قلبه أو بطنه أو

إحدى فخذيه. حينما سوف تفشل خطة الاقتحام سيلجأون إلى مباغتتنا من السطوح المجاورة، وساعتها سوف يكون قد وقف عند الأركان الأربعة ثمانية من الرجال، في كل ركن رجلان، ومهمتهم ليست هي رماية الأعداء الذين في الطريق وإنما هي تَرَصُّدُ السطوح المجاورة ورَشْقُ كل من يظهر عليها. هذه حرب. أنا وضعت خطتي ومن الدار سوف نخرج إلى الشارع لنبدأ الإغارة على البنوك والخَمَّارَاتِ ومراكز الشرطة والثكنات. سوف نستولي على السلاح وسنختفي في أماكن أخرى سوف أخبركم بها حينما أخبركم بخطة الخروج إلى الشوارع. أما خطة الرماية من السطوح فهي مواجهة لأي اقتحام مفاجئ، إذا ما كانت الأخبار قد وصلتهم وقرروا أن يجهزوا علينا في عقر دارنا. الصندوق الكبير فوق السطح وكل نباله مسقية بالسم، وهي طوع اليد، وعددها وفير، ويوجد من الرجال من يقدم النبال للرماة وبالسرعة التي تحقق الغرض. الحصار أعددنا له ما نحتاج إليه من طعام. في المخازن كل شيء، الزيت والسمن والعسل وأكياس الدقيق لنعجن منها خبز المقلاة. رَبَّيْنَا في أحد الأقباء الغنم والماعز والأرانب والدجاج وجعلنا في المخازن ما قدرنا عليه من البصل والثوم والزيتون. في بعض الأحواض زرعنا النعناع والبقدونس والفلافل. لن ينقصنا شيء إلا إذا طال الحصار لشهور وهم لن يقدروا على ذلك. هنا نَعْتَصِمُ وهنا نموت شهداء بعد أن نقتل من الكفار خلقا كثيرا، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله. الدار محصنة وإن وقع علينا الهجوم فلنمت شهداء.

وصلتُ إلى دار الفقيه الرحموني ووجدت كل شيء على غير العادة. الزرابي مرفوعة عن الأرض، مَلْفُوفَةٌ ومُسْنَدَةٌ إلى إحدى الزوايا، وأرضية الدار عارية، حتى رأس الفقيه عار وهو يقف في وسط الباحة والقلق باد على محياه. لم أكن قد رأيته واقفا قبل هذه الساعة، كنت أدخل عليه بعد أن أجهر بالسلام عليكم

وبعد أن يرد علي: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. يردها بأحسن منها كما أمر الرسول ﷺ. أرفع الستارة فأراه مُتَرَبِّعاً في مجلسه والكتاب في حجره ورائحة العطر النبوي والغالية على الصدغين واللحية الشهباء والكحل في العينين، وهو يتربع على لبدة الملف الخضراء ويستند إلى وسادة ذات تواش خضراء وحمراء، يرفل في بياض الجبة والعمامة، والبلغة عند الباب تكاد تحاذي أستار الستارة المنسدلة.

اليوم كل شيء على غير العادة. الرجال يتحركون بين باحة الدار والأدراج المؤدية إلى السطح. والفقيه لا يرد السلام ويبادرني بالسؤال:

ـ هل لاحظت شيئا غير عادي قرب باب الدار؟

رددت عليه مُطَمْئِناً:

ـ لا آ سيد الفقيه.

قال لي والقلق باد عليه:

ـ الدنيا ما بقا فيها أمان.

ـ الأمان في دار البقاء إن شاء الله.

ـ إن شاء الله.

رأيت بعض الرجال يستديرون ويَتَتَبَّعُونَ كلامنا وهم يضعون خطاهم على الأدراج في طريقهم إلى سطح الدار. قال لي الفقيه:

ـ كنت أنتظرك يا ميمون.

رددت عليه:

ـ جئتُ من الحرام إلى الحلال آ سيد الفقيه.

ـ هذه دار المؤمنين.

ـ الحمد لله.

ـ قل آ ميمون. هل لاحظت حركات رجال قرب الدار يمكن أن نقول عنهم جواسيس؟

حاولت أن أسترجع ما مر بي قريبا من الدار وأنا أخطو في الطريق. وقلت له بتردد.

ـ لا أستطيع أن أجزم بشيء. الله وحده من يعلم ما في السرائر.

ـ سبحانه وتعالى. تأخرنا عليك في فتح الباب.

ـ لا ضير في ذلك آ سيد الفقيه.

ـ أنا سألتك عن اسمك حتى أتبين صوتك. هكذا فعلت مع كل الرجال الذين جاءوا.

استعجلني الفقيه بالدخول وأغلق الباب بمزلاج كبير ثم عرضه بعارضة خشبية فعلمت من كل ذلك أن ميعاد الجهاد قد حان، لكني عجبت للفقيه وهو يقف حافي القدمين ورأسه عار، يرفع عينيه إلى الأعلى ويرى بعض الرجال يُطِلون على الباحة من حين لآخر. وكان قد اقترب مني وأخذ يسألني بعض الأسئلة من غير أن ينتظر أي جواب، وقال لي:

"إذا كنت قد لاحظت بعض السيارات واقفة قرب الدار فهم يختبئون فيها ويرصدون حركاتنا. النساء جاسوسات، يرتدين الجلابيب ويضعن على عيونهن النظارات وقد ثَبَّتْنَ فيما بين الكَعْبِ ومُشْطِ الحذاء آلات صغيرة لتسجيل بعض الكلام. الأماكن التي يعذبون فيها المخطوفين ضَلَّلُوا عليها بأن جعلوا في مداخلها محلات تقوم بإصلاح السيارات أو بالصباغة، وهي تظهر بشكل

عادي، لا يأتي الشك لمن يرتادها من الناس، ولا أحد يتصور أن في داخلها وفي قبوها قاعات للتعذيب، وهم يدخلون سياراتهم التي كَمَّمُوا فيها المخطوفين وغَشَّوْا عيونهم بغشاوات إلى عمق ذلك المكان حيث يوجد عالم آخر. لن نستسلم وكل شيء أعددناه لهذه الساعة. إذا لم يعتقلوننا هنا في هذه الدار فسيعتقلوننا من بيوتنا واحدا واحدا. تعالوا يا أحبة الله. إخوان آخرون سيلحقون بنا. نموت جميعا أو نُطهر هذه المدينة من الكفر والمُرُوق. هَمُّنَا أن نستولي على الأسلحة. وضعنا لهم الفخ ليسقطوا فيه وسوف نرميهم بالنبال المسقية بالسم ونستولي على أسلحتهم. أنت يا ميمون لا تعرف كيف تسدد وتضرب بالرصاص، ولكن إخوانا لك قد تدربوا على ذلك في أماكن عملهم مع الكفار ولكن الله هداهم إلى نور الحق كما هدانا. كنت قد حدثتك عن كتاب حربي قديم اسمه: تسهيل المنافع في ضرب المدافع، وجدتني أقرأ فيه ذات مرة كنت قد زرتني فيها، ومن أين نأتي بالمدافع؟ الرصاص وضعنا خطة الاستحواذ عليه. بنادقهم ومسدساتهم سوف نستولي عليها. بنار الرصاص سنطهر المدينة. تعالوا إلى بيت الله. هنا صلاتكم ووضوؤكم. هنا طعامكم ودعاؤكم وقيامكم الليل نصفه أو ثلثه. هنا تَحْيَوْنَ مسلمين أو تموتون شهداء".

القلب ثابت والنظرة واثقة والبداية بدأت. كان بعض الناس قد أخذوا ميتا لهم لدفنه في المقبرة، وجاء الحارس يطلب رخصة الدفن التي يسلمها الطبيب الشرعي بعد الكشف عن الموت. قالوا هذا ميتنا وهؤلاء نحن. الفقيه الرحموني أَفْتَى وحَرَّمَ علينا أن يكشف الأطباء عن موتانا، واستند في فتواه إلى أن هذا لم يكن يحدث في عهد الرسول ﷺ، والإسلام وُلد كاملا ولم ينقصه شيء حتى يُتَمِّمَهُ من يخترعون مثل هذه البدع. تضحكون على الناس وتشغلونهم عن التعجيل بدفن موتاهم، وإكرام الميت في التعجيل بدفنه. أي طبيب وأية رخصة؟

الطبيب يرسل أحد الممرضين ليرى وجه الميت ويكشف عن عنقه وبُؤْبُؤَيْ عينيه ثم يكتب الإسم في الورقة وينسحب. هل نحن قتلة؟ هل قتلناه؟ الميت توفاه الله بعدما جاء أجله وإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون. والحارس شتمهم وأخرج عصاه وضرب أحدهم فاجتمعوا عليه وضربوه حتى قتلوه، وتركوه قتيلا عند باب المقبرة وانصرفوا إلى دفن ميتهم. جاء البوليس وداهموا المقبرة واعتقلوهم، وجاء إلى المحكمة خلق كثير من عباد الله وأخرجوا الخناجر والسكاكين وهددوا بذبح القضاة ورئيس المحكمة إن لم يبرأ أولئك العباد المتقين من دم حارس المقبرة، وجاءت شاحنات الجيش وفرقوا عباد الله بالعصي والقنابل المسلية للدموع، وبدأت الضغينة. والفقيه الرحموني أفتى بإبطال أحكام المحاكم ما دامت لا تحكم بما أمر الله، كما أوصى رجاله من المتقين بأن يُوَلِّدُوا نساءهم في البيوت على أيدي القابلات وأن يدفنوا المشيمة التي هي الكيس الذي يكبر فيه الجنين في الرحم، فالأطباء لا يدفنون المشيمة ولربما يرمونها مع الأزبال أو يحرقونها في الأفران وهي جزء من الجنين استغنى عنه بعد أن خرج من الرحم. رَمْيُهَا مع الأزبال حرام، والستر من الإيمان، فالمرأة تَحْرُمُ على زوجها إذا ما كشف عنها طبيب، والحرام ليس من الإسلام.

المال جمعناه. كل من رزقهم الله من فضله وحلاله وهبوا من أموالهم لبيت الفقيه الرحموني والفقيه أعطى المال لكل ذي حاجة. أطعم الفقير ووَاسَى المظلوم ومسح دموع اليتامى. من ولدت زوجته اشترى له خروف العقيقة ودعانا لكي نحضر الوليمة ونَتْلُوَ الذكر الحكيم والأذكار. من ماتت أمه عَزَّيْنَاهُ وجَهَّزْنَاها للدفن. المريض ننوب عنه في الإنفاق على بيته حتى يشفيه الله ويعود إلى عمله، وهذا من هداية الله. والفقيه قال لنا انظروا إلى من يسلكون طريق النقابات كيف يتناحرون ولا يبدأون من التكافل فيما بينهم، ينتظرون الحوار مع الحكومة

سنوات وعليهم أن ينتظروا تحقيق نتائج الحوار إلى أبد الدهر. الإضرابات لا تغير شيئا من فقر الفقراء. الله أراد لهم هذه الحال والحمد لله على كل حال. وانظروا إلى الذين ينخرطون في الضمان الاجتماعي كيف يقتطع من رواتبهم كل شهر ولا يستفيدون شيئا ما دام المسيرون يتلاعبون بالملايير. أين الرحمة وأين الإحسان؟ أمة ضَلَّتْ طريق دينها فَبِيسَ المصير.

هل مات ميمون أيها الصاحب؟ ربما تكون أول رصاصة قد أصابته. كان واقفا وراء السور يرمي بنباله وهو يضع النبل في القوس ويرمي كل من يظهر له من رجال البوليس وهم يجتازون رأس الطريق في اتجاه دار الفقيه. رموهم بالنبال وصَبُّوا عليهم السوائل الحارقة، وسقط منهم بعض القتلى. تراجعوا لبعض الوقت حتى ظن رجال الفقيه أنهم قد تقهقروا، لكن الأزقة والدروب تَلْتَفُّ وتَتَعَرَّجُ ورُؤْيَتُهُمْ من سطح الدار محدودة، ولقد عادوا بعد ساعات واقتحموا الطريق من الجانبين، كما ظهرت البنادق والرشاشات على السطوح المجاورة، وأخذوا يَقْنِصُونَ رجال الفقيه.افترعوا باب الدار واقتلعوه من الرتاج بالرغم من الدعامة التي كانت تسنده من الداخل. قيدوا الفقيه وساقوه عاري الرأس إلى سيارة تقف بالخارج. قالوا وجدوا في الدار صبايا مخطوفات وغلمانا وصناديق مليئة بزجاجات الويسكي. بعض الجيران قالوا رأوا الصبايا والبوليس يُخرجونهن من باب الدار. وقالوا كل ذلك إنما هو إشاعة أراد منها مُرَوِّجُوهَا أن يفسدوا سمعة الفقيه عند الناس وأن يطعنوا في وَرَعِهِ وتقواه، ولربما يكون رجال البوليس قد أدخلوا صناديق الويسكي وأنواع الخمور بعد اقتحام الدار ثم أخرجوها على مرأى ومسمع. وقالوا وجدوا في بيت الفقيه مزرعة بها نباتات نامية وغنم وماعز ودجاج وأرانب، كما وجدوا في مخازن السلاح سيوفا ورماحا وخناجر. وقالوا وقالوا وقالوا، وكلها إشاعات.

ماذا تقول أنت أيها الصاحب؟ هل يفعلها الفقيه أم أن الأمر كله مجرد إشاعات؟ أنتظر أن تعود من حانة (الجرح في الحائط) وتعطيني الجواب.

هل أحزنك موت عمي ميمون؟ ربما يكون قد اعتقل ولم يمت. ماذا لو كانت ساميا قد قالت له ما أرادت أن تقول وردته عن ذلك الطريق؟ هل كان عمي ميمون سيرتد عن ذلك الطريق؟ إذا كان قد مات فليرحمه الله، وإذا كان قد اعتقل فسيقضي مدة في السجن وسيعود إلى دكانه ونحن لا نستطيع أن نُخَمِّنَ كيف سيعود. وهل أستطيع أن أخمن كيف ستعود أيها الصاحب. دُوَّارُ طنجة يأخذك من مكان لمكان، وَدُوَّاري أنا؟ ليس في طنجة سوى هذا الدوار.

الخطى العمياء

هل دار الفقيه الرحموني أيها الصاحب هي الأخرى برزخ من برازخ أرواح هذه المدينة؟

شُقَّتُكَ هذه عرفت ما فيها من أرواح، ومقهى الحافة أنت حدثتني عن أرواحه وأوصيتني بما أفعل إن أنا ذهبت إليه وأردت أن أغدو روحا من أرواحها. أما دار الفقيه الرحموني فها أنت ترى كيف تَسْرِي في بَرْزَخِها أرواح أخرى. سبعة أرواح وسبعة برازخ. ثلاثة منها عرفتُها فأين الباقي؟ أين تكمن أسرار هذه المدينة؟

قلت لي إذا عرف الإنسان البعض فقد أخذ طريقه لمعرفة الكل. أغوار المدينة وأسرارها وعمقها ومغاراتها لن تبيح نفسها بسهولة للرائي، حتى وإن كان هذا الرائي يعيش في شوارع المدينة وبيوتها وينتمي إلى نُسْغِهَا أو إلى ما يخرج من بين الصلب والترائب. أوهام هذه المدينة ليست سوى مظهر من حقيقتها المُتَخَفِّيَّةِ وراء لحظات مبعثرة في ذلك الزمن الذي يمتد من (المغارات) إلى (شارع باستور). لحظات مُراوِحة بين ما كان وعاشته طنجة من تبدلات وبين ما نحياه في يومنا وقد غدا نَاصِعًا أمام العين كحد السيف وبين ما ننتظر أن تعيشه المدينة في غدها. وأي غد أيها الصاحب قلت لي؟ خطواتنا عمياء وهذه المدينة عمياء. اسأل المرأة الزرقاء هل تعرف طريقها. في كل يوم تَصُبُّ على رأسها برميلا من النفط وتقترب من كل مناطق الاشتعال. كلما رأت رجلا يخرج مِشْعَلَتَهُ ويضغط على الزناد ليقدح النار حتى يشعل سيجارة إلا واقتربت منه أكثر، وكل الناس يبتعدون منها. هي تقترب منهم وهم يبتعدون. خطواتها عمياء كهذه المدينة. لكن لا عليك. أن نعرف مدينتنا فهذا يعني أننا نسعى إلى تغييرها، حتى وإن كنا

لا نشكل قوة سياسية أو مجتمعية، فالمدينة سوف تتغير فينا، لأننا نحن نخترع لها طقوسها اليومية ونضفي على فضاءاتها من أحاسيسنا وقلقنا وأوهامنا. دعك من ساميا فهي تحلم بتغيير من نوع آخر، ولقد فاجأتها ذات مرة بكابوس قلت لها إنني قد رأيت فيه السيد هرقل، ذلك العملاق الأعرج، وهو يمد يده من نافذتي ويحملني من فراشي ليأخذني إلى المغارات، وكانت الحجارة العلوية التي تُسَقِّفُ تلك المغارات تنز دما، والقطرات تسقط متتابعة وأرضية المغارات يمتزج فيها الماء بالدم، والسيد هرقل يضحك ويخرج من الفتحة المطلة على البحر ويتركني وحيدا، وقد انغلق عَلَيَّ المدخل الذي منه دخلنا ولم تبق لي سوى تلك الفتحة المطلة على البحر أرتمي منها وسط خضم الأمواج الهادرة أو أبقى هنا أشرب الدم وهو يتجلط حول عيني، ولم أستطع أن أختار، وكنت في ذلك الكابوس أصرخ وأنا أعرف أن لا أحد سوف يسمعني. أتعرف ما قالت لي ساميا؟ قالت لي أنت ترى مثل هذه الرؤى وحدك. هنيئا لك بما تجد من الوقت لكي تسترجع مثل هذه الكوابيس وتحكيها للأصدقاء الذين يزورونك. هل أنت تسليني أم تشقيني بما رأيت في هذا الكابوس؟ كان عليك أن تختار. الهشاشة التي فينا، ورخاوة الإحساس بأهمية المقاومة تجعلنا نتردد في أن نختار. أليس كذلك أيها المناضل القديم؟ قبل أن تدخل السجن كنت تختار وبعد خروجك منه ها أنت تحيا مع كوابيس لا تختار فيها بين الموت والحياة.

حاولت أن أنسى الجراح التي حفرها تأويلها للكابوس في مجاهلي وسألتها مدافعا عن نفسي:

- ولكن لماذا المغارات؟ ماذا تعني المغارات في هذا الكابوس؟

- حتى وإن كانت هي الوطن، فأنت لست وحدك في هذا الوطن.

- والدم؟

. كفاك تَفَلْسُفاً أيها الفرويدي الصغير.

. ليس قصدي أن أتفلسف يا ساميا، ولكني أستعيد تشكلات وعيي بطنجة وقد انتقلت إلى كوابيس.

. آه. تدعي أنك من سلالة هرقل؟

. لست أدعي شيئا ولكني أراجع الصورة اللاواعية التي أخذتها المدينة في الكابوس.

. وهل طنجة هي المغارات؟

. المغارات برزخ، ومجمع الأرواح هو طنجة.

ضحكت ساميا وقالت لي:

. عليك بالتنجيم. مُنَجِّمٌ أو ساحر أو مُحَضِّرٌ للأرواح!

أوجعتني سخريتها وتبددت تفاصيل ذلك الكابوس الذي كنت أنوي أن أستعيدها بتلذذ وأنا رهين مكاني الذي صممت على ألا أغادره لأيام. لكنها جاءت وبَدَّدَ كلامها تفاصيل ذلك الكابوس.

عادت تحدثني عن ذلك الكاتب الذي كانت قد التقت به وجَالَسَتْهُ في فيلا دو فرانس. قالت جاء لقاؤهما الثاني صدفة في (شارع الوحدة)، وقد تعرف عليها بسهولة وأظهر سعادته بلقائها وتواعد معها على اللقاء في (فيلا دو فرانس)، في الحديقة، نفس المكان الذي كانا قد تجالسا فيه في لقائهما الأول. وقالت أخبرها بأنه قد تقدم في كتابة روايته التي تدور أحداثها في طنجة، وحاولت أن تلاحقه ببعض الأسئلة ولكنه اسْتَلَمَ الكلام وهو يحافظ على رصانته وأخذ يتحدث عن الرجال كيف يريدون دائما أن تكون المرأة أسطورية حتى تُلْهِبَ خيالاتهم، فالرجل ينشغل بالمرأة التي لم يستبحها بالكشف، وتظل

رموزها ودهاليزها وأسرارها حافزا للأسئلة والتطلعات والخيالات. قلت له: (عن أية امرأة تتحدث يا أستاذ؟). قال لي إنها امرأة الرواية، تلك الشخصية التي أراد أن يجعل منها مرصدا للتحولات التي عرفها مجتمعنا بعد الاستقلال، وميلاد نموذج اجتماعي جديد للمرأة، له من الهموم والتطلعات وأنماط من العيش ما لم تكن المرأة قبل ذلك تتمثله أو تقتحمه. وإذا ما وضعنا هذه الشخصية في فضاء طنجة، فستكون محمومة بالشهوة والاستيهامات واللقاءات مع شخصيات أخرى رجالية ونسائية تمتلك تجربتها وعنفها وشهوتها. إلا أن كل ذلك ليس سوى ذريعة لكتابة ملامح مدينة يمتلك واقعها وأسطورتها وتاريخها. المدينة في تصوري لهذه الرواية هي الأهم، إنها ليست مجرد مسرح تعرض فيه الأحداث، بل هي رعشة اللغة أمام مكان مَنْسُوجٍ بالسهر والدم والعملات الأجنبية والخيانات والجواسيس والبحارة والقنصليات وأشياء أخرى أترك لارتعاش اللغة أن تخلقها أو أن تكتشفها وتُخَيِّلَهَا للقارئ، وليس ذلك سهلا علي، فأنا أمزق كثيرا من الصفحات وأشطب على كثير من السطور وأحيانا أبتهج وأنا أقبض على كلمة أجد فيها مفتاحا لبعض التفاصيل. لا أحب أن أكتب رواية ثرثارة. الكثافة وإشعاع اللغة وسحر الشخصيات والتفاصيل هي هاجسي. وأنا لا أحب أن أحاكي طنجة التي يأتي إليها السياح والمصطافون من كل مكان. طنجة في الكتابة لا بد أن تأتي معجونة برياح الشرقي ولغط الشوارع ورائحة الشاي الأسود بفصوص الزهر. أسرق اللحظات لكي أكتب، ولعلي أسرقها من نفسي ومن الزوجة ومشاغل اليومي. تفاجئني بعض الأفكار وأحاول أن أرتبها في صحوات ليلية أَنْسَلُّ فيها من الفراش وأدخل غرفة المكتب وأشعل سيجارة فأجد تلك الأفكار قد ضاعت مني وكأني قد فقدت ذاكرتي. بعض الناس يقرأون الرواية كي يروا أنفسهم في مراياها، وآخرون يقرأون تشكلات النص وبياضه ولغته وسهره وجنونه وتجلياته. تسمحين لي يا آنسة ساميا بأن أقرأ

عليك بعض الصفحات؟ ها هي معي في المحفظة. أنا أحمل معي أوراقي الخاصة إلى طنجة حتى أسهر معها في غرفة الفندق. ستكونين أول قارئ. ها هي أوراقي تلتقي بقارئها الأول، أقصد، وأنت تستمعين إلى ما فيها في هذه الحالة. سأقرأ بعض الصفحات مما كتبت، حتى وهي غير مكتملة. شكرا. اسمعي:

"رمت بنظرتها من النافذة فسرحت عينها في السور الموازي للسكة الحديدية وقد وقف عليها القطار المتوجه إلى فاس. نظرت إلى ساعتها وكأنها تريد أن تتحقق من موعد إقلاع القطار. ظهرت الرافعات في الميناء خلف محطة القطار، وسمعت زعيق بعض البواخر. ارْتَدَّ بصرها نحو اليمين فرأت مدخل (فندق بِيسِيرًا) وقد بدا خاليا. لم تلمح أية حركة للدخول أو الخروج. واستهامت في أحلام يقظتها تسترجع أيام العز التي كان قد عاشها هذا الفندق، وبعض الليالي التي وصلتها عنها بعض الأصداء بواسطة خالتها ميمونة.

أحست بالتعب وارتخاء الركبتين. انتقلت إلى المرآة وحَدَّقَتْ في وجنتيها وجبينها الذي أخذت تَرْتَسِمُ عليه بعض التجاعيد الخفية التي لا يمكن أن تلاحظها إلا بعض العيون المدربة على التكهن بأعمار النساء من خلال تفحص الجبين وجانبي الوجنتين والعنق وظاهر اليد بنظرات ثاقبة تَجُوسُ بعض المكامن. الاصفرار يسكن تحت الأصباغ والمرايا لا تفضحه، تفضحه عينا كمال المرآويتين. (أريد أن أجسد لحظة التخاذل التي تنتج عن الإحساس بالتقدم في العمر، وهي لحظة لا يحسها الرجل بنفس الحدة التي تشعر بها المرأة). أتجاهل عيني كمال حتى لا أقع في ذلك الشرك الذي كنت قد وقعت فيه قبل سنتين. حتى جسده صار باردا ولم يعد يستطيع أن يدفع بقطرة الدم حتى تَنْسَرِبَ من الشرايين وتتدافع نحو الوجه الذي ظهر متعبا في شحوبه وإن كان لم يَتَغَضَّنْ بعد. الدم عندما يصعد إلى وَجْنَتَيْ المرأة يا خالتي يعطيها كثيرا من البهاء

والإحساس بالحياة. وجهي صار من صلصال أو قصدير. عيناي منتفختان. الغربة والتعب وتَفَسُّخُ المفاصل بعد سهر الليالي ليلة بعد ليلة. شعري الخروبي ما عاد مُسْتَرْسِلاً إلا ليغطي عروق العنق النافرة، وأنا لم أقصه حتى لا أظهر ممصوصة كقشرة ليمونة. أحتمي بشعري.لعله الشيء الوحيد في جسدي الذي أحس أنني أحتمي به. الآن عرفت لماذا تبعد يدي بعصبية كل الأنامل التي تقترب من خصلاته كي تداعبها. أخشى أن أصبح شمطاء.

اقتربت من خالتها المسترخية فوق الفراش وقالت:

. خالتي ميمونة مالك؟

قالت لها خالتها:

. أصبحت عيانة. رأسي ثقيل.

اقتربت منها أكثر، وقد اتسعت عيناها:

. خالتي بْغيت نبوسك.

. هاكي. بوسي.

. قربي مني وجهك.

. البوس على الصباح! أنا رأسي ثقيل.

تحركت ميمونة بجسدها الممدد على الفراش حركة مثقلة وهي تميل وركها نحو حافة الفراش. تفحصت حنان بنظراتها.(ما رأيك في اسم حنان. صدفة توصلت إليه، لكني اكتشفت أن الشخصية التي أريد بناءها تفتقد كل عطف، وقد يعني الاسم نوعا من التعويض حتى وهي لم تختره. أسماء الشخصيات لها دلالتها الخاصة وبعض الكُتاب يألفونها إلى حد أنها تخرج من وجودها الورقي إلى

إثارة شحنات من العواطف والمعاني، وينسون أنهم من اخترعوها.

. قلت لك بغيت نبوسك.

. ها خدي.

. بغيت نبوسك فعينك.

. البوسة فالعين راها تتفرق. نسيتي الأغنية؟

أخطأت القبلة طريقها واقتربت من الفم. أمسكت حنان يد خالتها ميمونة وأخذت تداعب الأنامل الرقيقة بما يشبه الملامسة الدافئة وقد استيقظ فيها حنين غامر لشيء مجهول. اسْتَلَّتْ يدها وسرحت بعيدا حيث استحضرت تلك اللحظة التي كانت تتابع فيها مشاهد الشريط وقد أعطته يدها ليداعبها. كانت أنفاسه الحارة تُلْهِبُ عنقها وهو يقترب بشفتيه في ظلام السينما وقد الْتَصَقَ بها. غامت عينا حنان وطفرت منهما دمعة. أناملها تداعب أنامل خالتها. جسدها يتهاوى ويهبط إلى قاع جحيمي كي يغرق في الذعر والذهول وما يشبه الغيبوبة".

"قلت لك يا آنسة ساميا سأغير الاسم. بعض الكتاب يسمون شخصيات رواياتهم سين أو نون أو راء، تكسيرا لأي نوع من الإيهام أو المطابقة مع الواقع، فالأسماء لها دلالتها الاجتماعية وارتباطها بالبيئة، أقصد الأسماء المتداولة في بعض البيئات.لا تنسي أن النص لم يتشكل بعد. هذه مسودات. ليست ثمة كتابة نهائية. الكتابة التي لا تحمل في تشكلاتها إمكانية الهدم والبناء هي كتابة وثوقية تسعى إلى تكريس واقعها دون أن تفجره وتبني على أنقاضه واقعا يتحول باستمرار".

"نظرت حنان إلى حذائها الأحمر المُطَرَّزِ بمربعات صغيرة ذهبية. تَلَمَّسَتْ

نعومة ساقيها العاريتين. تذكرت موسى الحلاقة الذي كان حادا وكاد أن يُحدث بعض الجروح في الأماكن التي مررته عليها بعد أن أرْغَتْ عليها الصابون. كانت قد عادت من المستشفى بعدما تَمَّ نَزْعُ جبائر الجبس عن قدمها، وقد طلب منها الطبيب أن تقوم ببعض التمارين وألا تطيل مدة المشي على قدمها. كانت قد زَلَّتْ في وسط الطريق وانقلبت رجلها وسمعت طقطقة العظم فأغشاها الألم الذي اعتصر قلبها. حملتها بعض الأيدي إلى الرصيف وتَمَّ نقلها الى مستشفى القرطبي. قالت لخالتها مكتاب. أنا تعثرت في خطاي. لم تصدمني سيارة ولم أسقط من أدراج ولم يضربني أحد بعصا. يمكن أن تنتهي حياة الإنسان في مصادفة كهذه. الحياة قصيرة وأنا أريد أن أستمتع بحياتي. أريد أن أحافظ على شبابي ولا أشيخ. الليالي التي قضيتها وأنا أَمُدُّ قدمي زمامي وأدخن في غرفتي جعلتني أحس بالاختناق. كل البنات اللواتي في مثل سني تزوجن وأنجبن الأطفال وصارت لهن بيوت وأزواج وخادمات يساعدن على أشغال البيت. لا يخرجن من صالونات الحلاقة. يقضين الأماسي في أحضان العشاق وفي الليل يُدِرْنَ ظهورهن للأزواج. الرجل يتاجر في الحشيش أو في المُهَرَّبَاتِ فهذا لا يهم. المهم أنه يأتي بالمال وهذا هو دوره وكفى. مالك يا خالتي؟ أنا لا زوج لي ولا عشيق. كمال دمية صغيرة أملأ بها هذا الفراغ. كل الذين ألتقي بهم في الليل لا أراهم في النهار. الحياة صارت لَيْلِيَّةً في طنجة، وكأن الناس في النهار يُخفون وجوههم عن بعضهم حتى لا يتذكروا فضائح الليلة الماضية. الكؤوس أحرقت كبدي. أخرج من دوار وأدخل دوارا آخر. انظري يا خالتي! ها وجهي! هل ظهرت عليه التجاعيد؟ وجهي صار من صلصال أو قصدير، وأنت يا خالتي تكبرينني بعشر سنوات أو أكثر وشبابُك أنضر من شبابي. أنا عييت. هل أتعبك الاستماع إلى همومي؟ (وأنت يا آنسة ساميا هل أتعبك الاستماع؟ طيب.) أعطني بوسة. (حنان هي التي تقول هذا لخالتها ميمونة.). لا أنساه. قال لي نشرب شيئا

وأعطاني كأس الويسكي وزادني. كل الناس لا يعرفون اسمه. رجل لا اسم له. كلهم يسمونه الديواني. أتذكر لباس الديوانة والجثة الضخمة والشاربين ورائحة العرق التي لا تكف عن الفوران. قال لي أحبيني. الحب يا خالتي ميمونة. هل كان يمزح الله يبقي الستر. هل أنا أحب رجلا كهذا؟ جَوْرَبَاهُ خَانِزَتَانِ ورائحة عرقه تزكم الأنف. أخذني إلى حانات الشاطئ وأنا أنساني صيف طنجة كل شيء. نسمة البحر والكأس والبنات يغنين طيرطان يا للان. الديواني؟ آه! (شخصية الديواني سوف تتبدى من خلالها أسرار ميناء طنجة وعلاقاتها برجال كبار. الرشوة. الثراء السريع. المزاوجة بين الوظيفة والتهريب. قلت لك هذه الصفحات التي أقرأها لك اخترتها بالصدفة. هل أتعبك الاستماع؟ شكرا. نقطة. أول السطر".

"العينان ضاحكتان غسلهما ماء البحر. كانتا ضاحكتين عندما مَزَّقَ غُلاَلَةَ النوم وجَرَحَ النهد وهو يحتوي جسدي وصدره الثقيل يضغط على أنفاسي. أُبَاعِدُ وجهي عن وجهه حتى لا أتنفس من أنفاسه المخمورة وقد غاب عني كل شيء وأحاسيسي كلها تَرَكَّزَتْ في مكان الجرح، والغشاوة تتمزق، والألم الخفيف يخترقني كما كان قد اخترق الغشاوة وملأ كل الرحم بلذة غامرة سرت إلى كل العروق والخلايا. عانقته حتى وإن كنت أَنْفُرُ منه. لحم الرقبة يا خالتي يقولون عنه مأكول ومذموم. أردت أن أبهج عيني برؤية الدم. أدخلت طرف إصبعي ومررته ورأيت عليه الدم. ارتخيت ونعست وتركته يدخل ويخرج وأنفاسه تتصاعد وصدره الثقيل يضغط علي. انزاح عني وأعطاني كأسا أخرى. عيناه محمرتان وربما كانت عيناي غائبتان في تلك اللحظة. بعد أيام أسكرني وأخذني في السيارة قبيل الفجر ورماني على رمال الشاطئ. بقيت كلماته في أذني: (لا أعرفك. تذكري أنني لا أعرفك. ولم ألتق بك من قبل. لا أريد الفضيحة، وإذا جئت

للبحث عني فَسَأُلَفِّقُ لك تهمة المتاجرة في الحشيش. أسمعت؟). كان يحرك جسدي ويصفع خدي صفعات خفيفة حتى يعيد إليّ وعيي وأسمع ما يقول، وأنا سمعت.

(عين قطيوط).

(السواني).

(الدرادب).

البنايات ترتفع يا خالتي كل يوم. بعنا الخواتم والأساور. أخذنا المال من الرجال واشترينا الذهب ثم بِعْنَاهُ. البساتين صارت تجزئة سكنية وهم ربحوا ونحن خسرنا. حتى وإن كنا أنا وأنت قد اشترينا هذه الدار في هذا الحي فالمدينة هي التي تضحك علينا. طنجة تضحك على الناس، تُوهِمُهُمْ أنهم قد حققوا شيئا وهم في الحقيقة يخسرون حياتهم كل يوم. إلى أين سنمضي يا خالتي بما تبقى من العمر؟ (سأعيد ترتيب هذه الفقرات. حاولت من خلال هذه الكتابة الأولى أن أُنَضِّد بعض التفاصيل حتى أتمكن من بنائها خلال أكثر من كتابة أخرى. سأملأ بعض الفراغات وأعيد تشكيل ملامح الفضاء. المرأة والمدينة كما قلت لك. حنان وطنجة. لا تسأليني عن طول هذه الرواية. لا أستطيع الآن أن أحدد عدد صفحاتها، فالكتابة هي التي سوف تضع الحد لسطورها، بينما تبقى مفتوحة على احتمالات أخرى يمكن أن يكتبها القارئ، أو أن تتناسل من جسد الرواية كتابة أخرى، ربما رواية أخرى. العنوان لم أفكر فيه بعد. سأختار كلمة ذات إيحاءات متعددة حتى لا تسجن القراءة في الإحالة على معنى واحد. كلمة قد توحي بجماع النص وقد لا تحيل إلا على نفسها). حين عرفت بدأت بعض الأفكار السوداء تَتَسَلَّطُ علي. ماذا نفعل بنفسينا أنا وأنت يا خالتي؟ صرت عاجزة عن الغوص في اللذة والفرح وشعشعة الكأس. جسدي مصدوع وها

أنت تقولين رأسك ثقيل. وخز ذاكرة أتعبها التذكر. الجبلالكبير.الفيلات وواجهات الزجاج المطلة على البحر والحدائق المُسَوَّرَةِ بأشجار السرو واللبلاب. كمال قال لي أبوه واحد من أولئك الذين تاجروا في الحشيش وبنوا الفيلات في الجبل الكبير. يقول يحبني. هل أصدق؟ ولد صغير أضعه خاتما في إصبعي ولكن أين أنا وأين هو. كمال والجبل الكبير كلاهما صاعد وهابط وأنا لا أعرف نفسي هل أصعد أم أهبط. إلى أين يمكن أن أصعد يا خالتي؟ (لن أُطِيلَ عليك. جئت الى طنجة هاربا من جحيم الدار البيضاء ومن بعض أعبائي كي أستريح وأقرأ وأتأمل السحنات والفضاءات والأبنية وأسمع لغة الشارع. سأفرغ من كتابة هذه الرواية بعد عام أو عامين. اشربي كأسك. سأستمع إلى رأيك بعد أن تقرئي الرواية كاملة، وبعد أن أجد من ينشرها".

قل أيها الصاحب، هل رواية هذا الكاتب البيضاوي هي الأخرى برزخ من برازخ أرواح هذه المدينة؟ وكتابات بول بولز ومحمد شكري والطاهر بنجلون، أكلها تلتقي في نفس البرزخ؟ آه نسيت أيها الصاحب! ربما كان ذلك الكابوس الذي رأيتَ فيه السيد هرقل يأخذك إلى المغارات هو الآخر برزخ من برازخ أرواح طنجة. ربما، فأسرار المدينة في مكامن أرواحها، في البرازخ ومجمع الأرواح. ربما أيها الصاحب أنت تعرف ولا تريد أن تقول.

دعونا نكذب
فالحوادث ليست بهذا القدر من الجدية

غرق البحَّار واختفى ضابط المخابرات بعدما اختفى هيتلر. تقولون ضابط إنجليزي وكأن الإنجليز لم يعملوا كجواسيس إلا لصالح المملكة المتحدة. إنجليزي ولكنه كان يعمل لصالح عدة جهات من بينها النازية، وإلا فكيف نفسر اختفاءه مع اختفاء هيتلر؟ أما أدولفو فقد تَوَقَّعَ كل شيء ولم يتوقع أن يموت غرقا وهو البحار الذي طاف بكل المحيطات. اشترى قبره في سرگسطة ولم يكن يعلم أن قبره سيكون في بطن الحوت. العاشق ظل يبكي حتى تقرحت عيناه، ولما لم يجد معشوقه فقد استبدله بأربعة شبان أو خمسة، والسنيورة ماريا التي ننتظر منها أن تقول لنا ما رأته على الفراش ماتت أو راحت إلى إسبانيا ومن المحتمل أن تكون قد انتهت إلى إحدى دور العجزة. وهي لم تقل لنا ما رأته في الصندوق. نيزي لم ير الملائكة في طنجة، وعازف البيانو في سوناتا موزارت سكنت خصلة شعره على الجانب الأيسر وحتى بعد أن أسعفوه بكأس ماء ظل الماء يندلق على حافتي شفتيه وعيناه غائبتان. عاد الكاتب إلى الدار البيضاء، والشقروف في مكانه ما يزال قبالة الرف والمرآة الكبيرة يعاود الأيام والليالي. ساميا مجرد وهم من أوهام هذه الشقة، وهو نفس الوهم الذي عشناه وسنعيشه ما دام حاضرا بأشكاله اللانهائية في خطيئة آدم وفي أشعار رامبو وأنطونيو ماتشادو وفي أصياف طنجة الشاطئية التي تصير مجرد ذكرى نتوقع إحياءها مع كل صيف قادم،كما يحضر ذلك الوهم في خيال الصاحب وصاحب الصاحب، وفي الغربة والوحدة وحاجة الإنسان إلى الاستئناس.

كلهم تراجعوا.

الخيل ظلت معلقة في حركة نفورها على الحائط.

المنحوتات والتماثيل والأغراس في مكانها حتى وإن فقدت معناها ولم يعد لها ما يبرر وجودها في هذه الشقة.هل قلت ديناصورات؟ هل هذه التماثيل والمنحوتات تحاكي أشكال الديناصورات؟

ربما!

لكني أراها على هذا النحو، وكأنها لم تَجِفَّ بعد. مخلوقات مُرْعِبَةٌ بلون الرماد. الوجوه كَلْبِيَّةٌ والعيون أصداف محار صغيرة تلمع. ديناصورات تمرح في الوحل حولها أشجار من عهد بدائي. بدأت أتأمل اللون وحفر الإزميل وكهوف العانات والعيون النسائية النظرات والحدائق المتوحشة. أردت أن أستبطئ كل هذه الأشياء حتى أرى فيها عالما بَاخُوسِيًّا مرفوعا فوق الدِّنَان. الخوابي. رَفِيفُ أجنحة. ورد. حلمات نافرة. قطرات عرق تنبجس من جبين عجوز وهو يبتسم وأسنانه المنخورة بادية.كهوف ومغارات. عناكب تنسج خيوطها. جنرالات ونياشين. ألوان النار والدخان. صبايا عاريات في أيديهن ورقة حواء. الجبليات بِقُبَّعَاتِ القش الواسعة الجوانب والمزينة بألوان زاهية. كل هذا العالم اسْتَبْطَأْتُهُ قبل أن يذهب وتتحطم المنحوتات والتماثيل. أما الأغراس فقد لَوَّحَتْهَا رياحُ الشرقي التي وفدت من النافذة فأرخت أعناقها وذبلت.

هل هي نهاية العالم؟

أينك أيها الصاحب؟

ألا تريد أن تكون شاهدا على هذه النهايات؟

تعال لتعيش معي هذه اللحظة، فقد تَهَدَّمَ كل شيء وانهارت الأوهام التي منحتني إياها شقتك المسكونة بالأرواح. المسرح يتهدم والمتفرجون يراوحون

أماكنهم، أما الممثلون فبإمكانهم أن يمثلوا أدواراً أخرى، وقد يكون من بينهم أيها الصاحب من يَسْتَهْوِيهِ دور المستر هوفمان أو دور المستر علي في الحكاية التي كنتَ قد حكيتَها وجعلت مكانها هو حانة" التفاحة الذهبية". كل الناس قد هدأوا وحاولوا نسيان ما كان قد وقع. حتى الرصاصات نسوها. حتى الإحليل الذي كان يسبح في دورق صغير نسوه. كان المستر هوفمان يداعب الزبائن ويضحك بصوت عال. ينفث دخان السيگار ويضع يده اليسرى على فتحة الصدار كعادته، اعتدادا بالنفس، وبصدره البارز وضخامة جثته. لم يكن في الحانة سوى أجنبية تجلس على الكرسي العالي وهي تضع ساقا على ساق وبضعة رجال يَحْتَسُونَ كؤوسهم ويتهامسون. إنجليز وفرنسيون. المغربي الوحيد الذي كان في الحانة هو المستر عليّ كما كان المستر هوفمان يناديه. كان المستر علِي قد شرب أكثر من اللازم، وأخذ يُتَهْتِهُ وهو يُحَدِّثُ المستر هوفمان عن بعض المدن المغربية الواقعة تحت الحماية الفرنسية، ويذكر بعض التفاصيل عن سيرة الماريشالاليوطي. بدأ المستر علي يترنح، والمستر هوفمان ينصرف عنه إلى بعض الزبائن ويهمس لهم بأن المستر علي يعاني ولا شك من مشكل، و إلا لما فقد لياقته وسيطرته على نفسه، وكأنه بذلك يتلمس بعض الأعذار عما قد يكون المستر علي قد سببه من إزعاج، فالحانة تتميز بموسيقاها الخافتة المنبعثة من المونوغراف وأضواء الشموع وتهامس الزبناء وانحناءات النادل، والمستر علي ليس من عادته أن يُتَهْتِهَ في الكلام ولا أن يترنح كما يفعل الآن، يتكلم الإنجليزية بطلاقة وقد حصل منذ وقت بعيد على الجنسية الإنجليزية والنمساوية والإيطالية، مَالُهُ كثير وهو يسافر باستمرار إلى بلدان أوربا، تاجر أو جاسوس، فهذا لا يهم في شيء، وما يهمنا هو أنه عادة يَنْتَقِي كلماته ويتصرف بهدوء.

ظل المستر علي يترنح. نزل عن كرسيه العالي واقترب من المرأة الأجنبية

وحَيَّاهَا بأدب. ظهر من حركاته أنه ينوي أن يدعوها إلى كأس ويجلس على الكرسي العالي الذي بجوارها ولكنه لم يفعل، فقد أخذ يتأمل رَفَّ القوارير، حتى لمح آنية صغيرة نصف ممتلئة بسائل كأنه الماء، وزجاج الآنية شفاف والماء صاف يسبح فيه شيء لم يتبين ما هو. تذكر أنه كان قد لمح المستر هوفمان يأخذها من حين لآخر إلى الداخل ويغيب لفترة ثم يعود به ليضعه في مكانه وسط قوارير الخمور والأشربة، كما كان المستر هوفمان يأخذ كأسه في يده ويدخل إلى ما وراء الحاجز، فَيُدِيمُ النظر في ذلك الشيء الذي يسبح في ذلك الآنية، ثم يَتَجَرَّعُ كأسه دفعة واحدة، تغيم عيناه ويظهر عليه الارتباك، ويعود بعد حين إلى ضحكاته ووضع يده اليسرى على فتحة الصدار.

بعد أن رأى المستر عليّ ذلك الدورق، توجه نحو المستر هوفمان وسأله:

- مستر هوفمان. ما الذي يوجد في ذلك الدورق؟

احمرت عينا المستر هوفمان وقال له بغضب:

- مستر علِي! أنت سكران!

- قلت لك يا مستر هوفمان قل لنا ما الذي يوجد في ذلك الدورق.

- أنت تزعج الزبائن يا مستر علي!

- ألا تريد أن تقول؟

- مستر علِي ستضطرني إلى إخراجك من الحانة.

ازداد إلحاح المستر علي وحاول أن يدخل من الفتحة التي في الحاجز لكي يرى بنفسه ما هناك. أفرغ المستر هوفمان ثلاث رصاصات من مسدسه في صدر المستر علي. بعد أن قبض البوليس الإنجليزي عليهوفتشوا الحانة وجدوا الدورق في مكانه وكان مليئا بماء عادي ولا يوجد فيه أي شيء، وحينما

استدعوا الزبائن الذين كانوا هناك وقت الحادث ذكروا أن المستر علي كان سكرانا وكان يُلِحُّ على معرفة ما في ذلك الدورق، وكان يقول إن شيئا يظهر له وهو يسبح في ذلك الدورق كأنه لحمة صغيرة. فاجأت المستر هوفمان نوبة عصبية وأخذ يبكي ويضرب رأسه بجماع يديه، واعترف بأن الإحليل كان في الدورق، وقال منذ عشرين عاما وهو هناك، يسبح في محلول يمنعه من التعفن، ولم يكن أحد من كل أولئك الزبائن قد انتبه إلى ذلك الدورق أو إلى ما فيه، حتى جاء المستر علي، والمستر عليّ نفسه كان مداوما على شرب كأسه في (حانة التفاحة الذهبية)، ولم ينتبه إلى ما في الدورق إلا ساعة تَمْتَه من سكره. إحليل شاب مغربي كان المستر هوفمان قد قتله بعد أن ظل يرفض. قتله ودفن جثته في مكان بين طنجة وأصيلة، وظل يحتفظ بالإحليل بعد أن احْتَزَّهُ بسكين ووضعه في الدورق. المستر علي ذكرني بكل شيء. أنا نسيت ذلك الشاب وبقيت أحتفظ بالإحليل والمستر عليّ هو الذي فضحني.

كل أولئك الناس أيها الصاحب قد هدأوا وحاولوا نسيان أشياء كثيرة حدثت. تراجعوا نحو الصمت والارتخاء والتذكر. هل يمكن استعادة ما حدث هنا في هذه الشقة أيها الصاحب؟ إذا ما استعدنا أنا وإياك ما كان قد حدث أو ما كان يمكن أن يحدث، فلسوف تتسلل إلى أوراقك بعض الأحداث والحكايات التي يمكن أن تمنحها شيئا من الحياة. أما الأشرطة التي كنت تسجل عليها ما تقوله لنفسك، والتي ربما نَوِيتَ أن تستخلص منها سيناريو شريط سينمائي أو مادة لرواية فإنها سوف تغتني بمثل هذه الحكايات التي تأتي بها إليَّ من أزمنة طنجة وفضاءاتها وشموخها وشيخوختها.

هل نستعيد ما حدث؟ الرياح العاتية تدخل من كل بوابات المدينة. كلهم ديناصورات. ديناصورات في المنحوتات الطينية التي لم تجف بعد، أو على زجاج

واجهات البوليبار. حتى هرقل غدا ديناصورا، والصاحب، أنت أيها الصاحب ها أنت تغدو ديناصورا، وساميا، وكل الذين استعدنا معهم ما حدث، فربما يأتي ذلك النحات إلى هذه التماثيل والمنحوتات ويعجنها لِيُسَوِّيَ من طينها كائنات أخرى في ساعة من ساعات لَهْوِهِ وهو يخلق العالم.

بحيرة دم

رميتُ وردتين على قبر ساميا، وذرفت دمعتين،ثم عدت أدراجي كي أبدأ محاولة النسيان.

دخلتُ المغارة الأولى وكانت تَنِزُّ ماء من السقوف فَمَرَّرْتُ راحة يدي على شعر الرأس وبحثت عن مكان للضوء فلم أجده.

دخلت المغارة الثانية، وكانت بها فوهة تطل على البحر من مكان شاهق العلو، وكانت تلك الفوهة تحاذي مكان الشمس في كبد السماء، وحينما سمعت دبيبا من حولي رأيت بعض الأفاعي فخرجت هاربا أبحث عن مغارة أخرى.

دخلت المغارة الثالثة فزكمت أنفي رائحة الخيضور،كان ضوؤها قليلا وإن كان يسمح لي برؤية مَوْطِئِ قدميَّ بين الصخور، حتى شاهدتُ تلك الحفرة التي يَسْتَحِمُّ فيها شيخ عاري الرأس، ذو لحية كثة بيضاء، فتقابلتْ نظراتنا وخجلتُ من رؤيتي لأعضائه العارية وخرجت.

دخلت المغارة الرابعة، وكان قلبي يرجف. صفعتني النظرات ورأيتهم يقفون من مكانهم ويتجهون نحوي وقد شهروا مسدساتهم في صدري. كانت ثمة بعض آلات التسجيل وأجهزة الفيديو فعلمت أنهم من المهربين. سألوني وأجبت.ثم سألوني وأجبت. أجبت بأن الحزن هو ما جاء بي إلى هذا المكان، فقد حبست نفسي في غرفة الصاحب أياما وليال أنتظر أن يعود وهو لم يعد، وحينما خرجت من الشقة وجدت نفسي في هذه المغارة. ضحك أحدهم بسخرية. وابتسم لي آخر وفي عينيه اشتهاء حتى اقترب مني وهَمَّ بي فتضاحك الآخرون، ورجوته أن يتركني لحالي فتغيرت نظرته وعانقني بحب كما يعانق الرجلُ الرجلَ في لحظة غامضة كأنها الاشتراك في الأسى وانهيارات الذاكرة بعدما انهار كل الحاضر،

ورأيت في عينيه شيئا كأنه بؤس الطفولة أو الطرد من الوظيفة أو الإخفاق في حب امرأة، لكنه اقترب مني وفتش جيوبي تَحَسُّبًا لبعض الأمور، ثم طلب منهم أن يخلوا سبيلي.

دخلت المغارة الخامسة فوجدت على جدرانها سلاسل موثوقة بمسامير غليظة والصدأ يعلو الجدران والسلاسل والمسامير. تلمست بالضوء الذي في عيني سطوح الجدران ورأيت بعض الدماء الطرية وهياكل عظام موتى مبعثرة وبعض الجماجم. كان خروجي من تلك المغارة أصعب من دخولها ولكني خرجت.

دخلت المغارة السادسة وكانت مضاءة بالكهرباء نظيفة الجدران التي كانت مُبَلَّطَةً ومَطْلِيَّةً بصباغة بيضاء، وقد عُلقت عليها صور سُلِّطَتْ عليها الأضواء الكشافة. أحسست كأني في معرض للوحات الزيتية، غير أن الصورة كانت كلها لرجال ونساء اتضحت ملامحهم ومع ذلك لم أتمكن من التعرف عليهم، ولم يكن ثمة دليل للمعرض أو ملصق يوضح طبيعة الصور أو أسماء أصحابها أو أسماء من رسموها. الأطر عريضة مذهبة عليها تواش، والزجاج نظيف لامع تحت الأضواء. فاجأني صوت يبدو قادما من مسجل وهو يردد ببطء:

- الأعداء. الأعداء. الأعداء.

انتبهت إلى أن الصوت يأتي من زاوية في السقف. أخذ أصحاب تلك الصور ينظرون إليَّ جميعا وكأن عيونهم تتحرك وشفاههم تبتسم.رأيت الأيدي تتحرك نحوي وقد صارت كذيول أخطبوط وبرزت الأنياب التي ظهر عليها اشتهاء الدم. انطفأت الأضواء وسمعت صوت تهشم الزجاج وأحسستهم يخرجون من الصور. نسيت باب المغارة فارتطم رأسي بزجاج واجهة وعاد إليَّ وعيي بالمكان وبموقع باب المغارة فخرجت.

دخلت المغارة السابعة. سمعت صخورها الصماء تُبَقْبِقُ وأحسست قدمي تغوصان في شيء لَزِجٍ ساخن. بدأت أُخرجهما من الحفرة وهما تقعان في حفرة أخرى وأنا أخطو لا أعرف إلى أين. أتماسك عن السقوط مستعينا بيدي اللتين جرحتهما الصخور الحادة المسنونة. صعدت وهبطت وبَقْبَقَةُ ذلك السائل الفوّار تأتي إلى أذني من بواطن الأرض. وحينما تجلت لي الرؤية عرفت أنها بحيرة دم.

دخلت المغارة الثامنة فرأيت كتابا كبيرا مفتوحا فوق طاولة، أوراقه بيضاء، وبجواره قلم كبير في حجم فأس، وممحاة ضخمة في حجم الخبز الباريسي. لم يخطر على بالي ما يمكن أن أكتبه في ذلك الكتاب الأبيض، وجالت عيناي في المكان فرأيت طيورا تُعَشِّشُ وتُصَفِّقُ بأجنحتها الكبيرة فارتعبتْ مني وأخذت تحنو على فراخها ذات الزغب الأسود والمناقير الصفراء، كما أخذت تصرخ بأصوات جارحة وجدران المغارة تردد الصدى حتى ضَجَّ رأسي ونسيتُ الكتاب الأبيض والقلم والممحاة وتراجعت خارجا.

دخلت المغارة التاسعة. وجدت بداخلها قبة ضريح مطلية بالأبيض والباب أخضر. طرقت الباب. انفتح لي دون أن أرى من فتحه، ولم أجد في الداخل سوى قطة عوراء ولا قبر في ذلك الضريح. الشموع مشتعلة. جلست على الحصير واقتربت مني تلك القطة العوراء وبدأت تشمني وتلحسني حتى استيقظت فيّ بعض الرغبات الكامنة وأخذت ألاعبها وأُمَسِّدُ رأسها وعنقها بأناملي وهي ترفع عينها الوحيدة وتنظر إلى عيني وتحاول أن تُدخل رأسها تحت ثيابي، حتى فاجأنا ذلك الرجل الذي لم أعرف من أين جاء، وكان أنيق الملبس، تفوح منه رائحة العطر، وفي يده حقيبة سامسونيط، فنفرت القطة واختفت في مكان ما من الضريح. بدا عليه الغضب وقال:

ـ أنت تخونني مع زوجتي!

لم أجد ما أقول. رأيت ملامحه تشبه ملامحي، ثم فتح الحقيبة وأخرج منها عدة أوراق وصور ظهرت منها الكارت بوسطال المعروفة التي تظهر عليها صورة مغارات هرقل، وظهرت منها خرائط قديمة لمدينة طنجة يظهر عليها الميناء في وضعه القديم، كما ظهرت منها صورة لساميا تضاحك الصاحب ونظرته تغالب الأسى الذي في عينيه، ولم يكن ذلك الرجل الأنيق قد عرض عليَّ تلك الأشياء، ولكني لمحتها وهو يُقَلِّبُهَا ويبحث بينها عن بعض الأوراق، حتى أخرج دفتر تواصيل وقال لي بجفاء:

ـ ادفع ما في هذه التواصيل من مبالغ.

اعتذرت له قائلا:

ـ لا مال معي.

أخرج المسدس من الحقيبة واتسعت عيناه وهو يسدد نحوي حتى رأيت موتي، وحين سمعت صوت الضغط على الزناد عرفت أنني لم أُصَبْ، ورأيت الإحباط في عينيه، فهربت.

دخلت المغارة العاشرة بعدما اخترقت نسيجا من خيوط العنكبوت. وجدت نفسي عند مدخل شقة الصاحب، قبالة مائدة الطعام التي وضع عليها قبر صغير وضعت فوقه صورة ساميا، وصورة الصاحب، فرميت وردتين، وذرفت دمعتين، ومن تلك المغارة عدت إلى المغارات.

سفر المسافات

أيها الصاحب، تعال نستحضر كل شيء، نستعيد ونستعيد من غير أن نمل أو ندوخ أو ننسى أو يقهرنا الحزن ويأخذنا النعاس.

أين أنت الآن؟

ها قد تركتني وحيدا وكأنك قد تخلصت مني حتى لا أذكرك بشيء، أو أنك قد تخلصت من نفسك بهذه الطريقة العجيبة في الانسحاب. وما معنى أن أرى صورتك إلى جانب صورة ساميا فوق ذلك القبر الصغير، وفوق مائدة الطعام؟

هل كنت أحلم؟

لو رميت بنفسك في البحر لتعايشت مع القروش والحيتان، ولو تَنَسَّكْتَ في المقابر لكتبت كتاب الموتى، ولو كنت قد ذهبت إلى مقهى الحافة لأصبحت تنصب جماجم البلاستيك على جذوع الأشجار إلى جانب جماجم البشر حتى يكون للمكان معناه، وتشرب الشاي بالنعناع والزهر وتقول هذا هو وقت الربيع. يَخْضَرُّ القلب وتظهر البسمة التي غابت طوال ما مضى من الفصول، والزندان عاريان، وأنت تلحس السكاكين بشفتيك لاعقا ما تبقى عليها من الدم، حتى ولو لم يكن ثمة دم، فأنت لم تذبح دجاجة في حياتك، وإذا ما مشيت على البيض فلن تتكسر قشرته، ولكنك تهوى فحولة تلك الأيام التي غابت كما أهواها أنا أيها الصاحب، يا ظلي وجسدي وعيني،يا أنا، وها أنت ترى كيف صار كل الفحول مَخْصِيِّيَن أيها الصاحب. لو رميت نفسك في طريق العمائم البيضاء. وأصحاب عمي ميمون هل تقول إذا قتلتموهم فاقتلوني؟ هل كان ذلك ممكنا؟

هل أنت رَخِيٌّ حتى تسير في ذلك الطريق؟

العالم ينهار والمبادئ لا تنهار أيها الصاحب، ودخولك السجن لم يكن كذبة اِفْتَرَيْتُهَا عليك حتى وأنا أُجَذِّفُ عليك الآن. أنت غائب وأنا أتصور ما يمكن أن يكون قد حدث في هذا الغياب، وحتى ما لا يمكن أن يحدث، فربما صارت لك صداقات وعداوات ومدن تجول فيها بعينيك تُعَوِّضُ بها افتقادك لطنجة وكأنك في تلك المغارات التي دخلتها بعد خروجي من الشقة، وقد تركت طنجة غريبة، بغير توابل، وبغير ثرثرة عمال الميناء ومعاناتهم وضحكاتهم، وها طنجة وحيدة، مقطوعة من شجرة والوحشة تملأ الشوارع والمقاهي والشاطئ والقصبة والناس لا يعرفون بعضهم البعض.

هل غادرت طنجة ذات وهج على متن القطار، أم أنك قد دخلت الميناء وسافرت إلى الجزر؟ ولربما تكون قد تسللت حافيا كأنك تغادر فراش الحبيبة ولا تريد أن تزعجها في المنام. انظر من مكانك إلى طنجة أيها الصاحب. الصباح مشرق جميل ونسمة البحر تملأ النفس بالابتهاج، و(شارع باستور) يستيقظ من ليله الساهر وينفض عنه آثار الخُمَارِ والكسل، والمجانين يمارسون طقوسهم الصباحية، وتجار العملة يبدؤون نهارهم في السوق الداخل، وفطور خبز المقلاة والجبن العربي، ولعلك لو أتيت الآن تشرب كأسا مع عازف البيانو، أو مع الشقروف، أو مع المستر هوفمان، أما كأسك معي أو مع ساميا فمؤجلة وإلى حين، وربما الى أن نخرج من هذه المغارات ونعاود لحظة البدء، وأنا أضغط على جرس الباب والجرس لا يرن، وأنت تفتح الباب مبلل الشعر، والتماثيل ناهضة في الممر، والنباتات الخضراء فوق الثلاجة وفي الموقد وفي كل مكان، وأنت تقدم لي القهوة في ذلك الفنجان، وتحدثني عن برازخ أرواح طنجة.

أينك أيها الصاحب؟

هل سافرت؟

هل اختفيت في مكان سري؟

هل تَخَفَّيْتَ على صورة مجنون أو تاجر عملة أو امرأة زرقاء أم أنك الآن في المغارات، ترى ما رأيت، وتخرج من مغارة وتدخل أخرى، حتى تصل الى تلك المغارة التي تسكنها القطة العوراء والرجل الأنيق الملبس؟ هل أنت مَنْسِيٌّ في مستشفى القرطبي أم أنك الآن في مقهى الحافة؟ وهل سَوَّيْنَا كل الأوتار حتى نعزف أنا وإياك نغمة واحدة أم أن رياح الشرقي قد صَعَّدْتَ من توترنا معا؟

لو عادت بك الأيام أيها الصاحب إلى شقة الصاحب، ورأيت ساميا تنام مُنْكَمِشَةً على نفسها، ترفع عن رأسها الغطاء وتراك واقفا أمامها وأنت عار، ثم تعود لتغطي رأسها بالغطاء حتى لا تراك، ولو رأيت الأغراس التي قتلها الذهول والنسيان حتى أرخت أعناقها وكأنها مشنوقة بحبل سري، والخيل التي في اللوحة على الجدار وقد كَفَّتْ عن الجموح، والديناصورات وقد جاء إليها ذلك النحات وعَجَنَهَا وسَوَّى من طينها مخلوقات أخرى، ولو رأيت الوسائد، والفراش الذي كأنه القبر المشتهى، هل تضحك ضحكتك الطنجاوية أم أنك ستعود من حيث أتيت، أو ستعيد لكل تلك الأشياء الميتة أرواحها وابتهاجها بالحياة؟ هل تعيد إلى ساميا زبيبتها الناتئة على الجانب الأيسر من الذقن، ولعازف البيانو حركة خصلته المائلة على الجبين، وللنباتات الطفوح والاخضرار، وللشقروف شبابه، ولطنجة ذاكرتها؟ الوحدة قاتلة أيها الصاحب. النوارس كلها رحلت عن الشاطئ ولم يبق سوى الكلاب. طنجة ما عادت برزخا لكل تلك الأرواح، وهي الآن نائمة بعد ليلة خَمْرِيَّةٍ والخُمَارُ يَهُدُّ مفاصلها. خذ. هاك هذا الديناصور. خذ. ها هي الخيل التي لا تجمح. أحرقت البحر وحطمت التماثيل وكسرت لوحات الخيل التي لا تجمح. خذ. هاك خراب العالم الذي لن ينهض بعدك أيها الصاحب، ولي ولك كل هذه المسافات.

الفهرس

هذه الرواية

. نشرت في طبعتها الأولى لدى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، ١٩٩٠ ثم وصدرت عن مطبعة الساحل، الرباط، ١٩٩٤. وفي طبعتها الثالثة ضمن الأعمال الكاملة للمؤلف، التي أصدرتها وزارة الثقافة المغربية سنة ٢٠٠٥.

. ترجمت إلى الفرنسية، فصدرت عن منشورات **Circé** بعنوان: **Les Grottes de Tanger** سنة ١٩٩٩.

وإلى الإسبانية، فصدرت عن**QUORUM EDITORES** بعنوان **Las grutas de Tanger** سنة ٢٠١٠.